

النسيان

أحمد فؤاد الأهواني



النسيان

تأليف
أحمد فؤاد الأهواني



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <https://www.hindawi.org>

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلي يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣١١٤ ٣

صدر هذا الكتاب عام ١٩٤٥.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المَصْنَف، الإصدار ٤.٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

٧	فوائد الذكر وغوائل النسيان
١٥	صفحات الماضي وأغوار الزمان
٢١	خط التعلُّم
٣٣	خط النسيان
٤٣	أمراض التعرف
٥١	نسيان الطفولة ونسيان الأحلام
٥٩	النسيان في الحياة اليومية
٦٧	فقدان الذاكرة
٧٥	قواعد لتدريب الذاكرة

فوائد الذكر وغوائل النسيان

أدام الله عليك نعمة الثقة بالنفس، وعمّر قلبك بالإيمان، وأيّدك بفضيلة الذكر، وأبعد عنك آفة النسيان.

وقد رجوتُ منك — أيها الأخ الصديق — أن تذكر ما طلبته منك، فزعمت أنك لا تنسى! اللهم وجلّ مَنْ لا يسهو، سبحانه وتعالى؛ فهو القائل في محكم التنزيل: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)، فكيف تذهب في ثقتك بنفسك، واعتزازك بها، واطمئنانك إليها، واعتمادك عليها إلى دعوى العصمة من النسيان؟

حقاً إن الثقة بالنفس فضيلة في كل شخص يريد أن يعيش في هذه الحياة سيّداً لا مَسُوْداً، وحاكماً لا محكوماً، وعزيزاً لا ذليلاً. وهي ألزَمُ الفضائل لمصر في عهدها الجديد. وهي أول شرط من شروط التذكُّر؛ لأنّ الذاكرة ليست شيئاً آخر إلا «النفس»، فالثقة بها حياة الذاكرة، أو حياتها.

ولا تحسبنّ أنني ألعب بالألفاظ حين أجعل النفس مرادفة للذاكرة؛ فأنت تعرف ولا ريب مذهب برجسون، وتعرف كتابه المشهور «المادة والذاكرة» الذي يقابل فيه بين الجسم والنفس، بين المخ والشعور، إلى أن يقول في ختام كتابه: «بالذاكرة نصبح حقاً في ميدان النفس.»

وسأزيدك بهذه النظرية بياناً خلال فصول هذا الكتاب.

وإنك لعلّ حقّ حين عوّلت على الذاكرة وأودعتها ثقتك؛ لأنّ فوائد الذاكرة في الحياة النفسية والاجتماعية من الخطر، بحيث تبطل كل حياة تخلو من الذاكرة، وترتقي الأحياء مع سعتها وشمولها وحسن استخدامها.

ولعلك تَعَجَّب من نسبة الذاكرة لسائر الكائنات الحية كالنبات والحيوان، ولكن عجبك يزول بعد النظر إلى أصناف الذاكرة، أو إلى قسميها المشهورين؛ الآلية والشعورية. يُقسَّم برتراند رسل في كتابه «تحليل العقل» الذاكرة قسمين: ذاكرة العادة وذاكرة المعرفة Habit-memory, Knowledge-memory، وإلى مثل ذلك يذهب برجسون أيضاً مع قليل من الاختلاف. وهناك أقسامٌ أخرى لا محل لذكرها الآن.

والعادة ميلٌ إلى أداء عمل من الأعمال نتيجة التكرار، حتى يصبح هذا العمل «آلياً» كالمشي والكتابة وتناول الطعام وما إلى ذلك.

ويتجه معظم علماء النفس المحدثين إلى إخراج هذه الأعمال الآلية من ميدان الذاكرة التي يقصرونها على الأمور التي ندركها مع شعور ومعرفة.

ومع ذلك، فنحن نلاحظ في حياتنا اليومية اختلال بعض الأعمال العادية التي نُكرِّرها آلياً، ولا يمكن أن نُعلِّل هذا الاختلال إلا بالنسيان. مثال ذلك الذي يصلي العصر وهو يعلم أنه أربع ركعات، يُكرِّرها اعتياداً، وقد ينسى فيزيد ركعة أو ينقص ركعة من غير أن يدري، إذا كان مشغول البال. ورأيتُ زميلاً في أيام التلمذة منذ أكثر من ثلاثين عاماً وقد لبس وهو ذاهب إلى المدرسة «لبدة» فوق رأسه، بدلاً من الطربوش، فلما نَبَّهْتُه إلى ذلك عاد إلى منزله مسرعاً وغيَّر لباس رأسه؛ ذلك أنه كان معتاداً أن يصلي الصبح مغطياً رأسه بهذه اللبدة، فنسيها على رأسه مع العجلة.

ويُروى عن أديسون — فيما أذكر — أنه أخذ يحلُّ مسألة رياضية عويصة اشتغل بها عقله وهو في الشارع، فأخرج من جيبه قطعة من الطباشير، ورأى أمامه عربة أجرة ظهرها أسود كالسبورة، فشرع يكتب عليها، حتى إذا سارت العربة رأى الناس رجلاً يجري وراءها وهو ممسك بالطباشير ولا يزال يكتب.

من أجل ذلك عدَّ بعض علماء النفس الأعمال العادية من جملة الذاكرة، وفَسَّروا اختلالها بالنسيان ولو أنه صادر عن اللاشعور.

ولنرجع إلى بيان فوائد الذاكرة بوجه عام، دون اقتصار على ذاكرة المعرفة والشعور؛ فقد تُفسَّر لنا هذه النظرة الشاملة حقيقة الذكر وطبيعة النسيان.

فالذاكرة تظهر كما قلنا مع أدنى الكائنات الحية درجة؛ لأن الكائنات النباتية والحيوانية الأولية تحتفظ بآثار التغيرات التي تؤثر فيها، فهناك زهور تتحرك مع الصور في النهار، فتظل حركتها بعض الوقت حتى بعد حلول الظلام. وتظهر بعض الحيوانات المائية على رمال شاطئ البحر مع الجَزْر وتعود إلى الماء مع المدِّ، فإذا وُضعت في إناءٍ

زجاجي استمرت تفعل الحركة الدورية نفسها عدة أيام. ودرس الدكتور مارتن نوعًا من الديدان البحرية يعيش على شاطئ المانش، يُسمَّى كونفولوتا Convoluta، وأثبت وجود هذه الدورات الحيوية واستمرارها حتى بعد انعدام المؤثر الذي يُحدثها. وتَتَّبِع العلماء نشأة الذاكرة في أنواع الحيوان كالأسماك والزواحف والطيور والثدييات المختلفة، وانتهوا إلى هذا القانون الخاص بالذاكرة وهو: يزيد النسيان مع الجذر التربيعي للزمن الذي ينقضي بعد الحفظ والاكتساب.

وهذا القانون، قانون النسيان الذي ينطبق على الحيوانات، ينطبق كذلك على الإنسان، مما يدل على أن الطبيعة تجري من حيث الحفظ والاكتساب، ومن حيث النسيان تبعًا لقانون واحد.

فالعادات التي تُكتسب مع التكرار تُسهّل العمل، وتجعله أدقّ وأسرع وأتقن. ولا نودُّ الإطناب في بيان فوائد الذاكرة الآلية، ولنتحدث عن مزايا ذاكرة المعرفة التي تمتاز بالشعور وبإدراك الزمان الماضي.

فالمُدركات الحسية تحتاج في معرفتها إلى التجارب السابقة. انظر إلى الأشياء التي تحيطك، والتي يُخَيَّل إليك أنها مألوفة لا تحتاج إلى ذكرياتٍ ماضية، تجد أنها لولا معرفتك السابقة بها ما استطعت الآن إدراكها. هذا كتاب، وهذا قلم، وهذا باب، وهذه نافذة، وهذه منضدة، وهذا الشخصُ الواقف أمامك هو أخوك محمد أو صديقك حسن. أيُمكن أن تنسى هذه الأشياء فلا تعرفها؟ نعم إذا أُصِيبَت الذاكرة بعارض من العوارض، فيُحس المرء ولكنه لا يعرف ما يُحسُّه، فهذه حالة فتاة تُسمَّى موديست Modeste، ذكرها الدكتور جان ديلاي في كتابه «أمراض الذاكرة»^١ قال: «تبلغ موديست الثالثة والعشرين، أُصِيبَت برصاصة مسدس في الجانب الأيمن من المخ، فأصبحت لا تعرف — إذا كانت مغمضة العينين — الأشياء المألوفة التي توضع في يدها اليسرى. إنها لا تزال تحتفظ بإحساسات اللمس، ولكنها لا تُميِّز نوع الأشياء. قالت عن قلم رصاص وضع في يدها اليسرى: «إنه صلب، ناعم الملمس، طويل، مخروطي، في نهايته نقطةٌ مدببة.» وعن ملعقة: «شيءٌ صلب بارد، معدني، رفيع من الوسط، إحدى نهاياته مفرطحة، والأخرى أضخم، بيضاوية الشكل، محفورة.» وهكذا تجهل موديست الأشياء المألوفة، مع أنها تعرفها إذا وُضِعَت في يدها اليمنى، كأن يدها اليسرى قد نُسِيت ما تعلَّمته اليمنى.»

^١ Jean Delay: Les Maladies de la Mémoire, Paris 1942, p. 31

لقد ارتدَّت هذه الفتاة كالطفل الرضيع قبل أن يدرك؛ فالطفل في الشهر السادس يبدأ بمسك الأشياء التي تُحيطه بيديه، كالكوب مثلاً أو الصندوق، فيضع يده بداخله، ويتحسس جوانبه، ويظل على هذه الحال مدةً طويلة؛ لأن إدراك الصندوق بالبصر لا يؤدي إلى معرفة طوله وعرضه وعمقه، بل تتدخل في معرفته عدة إحساساتٍ بصرية ولمسية، وسمعية أيضاً لإدراك صلابته، وهذه كلها تجتمع وقتاً بعد وقت، وترتبط بعضها ببعضها الآخر، حتى يدرك الطفل بعد اجتماع هذه الخبرة على مر «الزمان» في صفحة «الذاكرة» أن هذا الشيء صندوق.

والذاكرة هي التي تعين الإنسان على التصوُّر وعلى التخيل السليم أو المريض. فإذا استحضرت صورة صديق لك في ذهنك، فإنما تستعين بالذاكرة على استحضارها، وإذا تخيل مهندس مشروعاً مثل زراعة الصحراء والبحث عن الوسائل المختلفة لريِّها، فإنه يلجأ إلى معلوماته السابقة.

والتمييز بين الذاكرة والتخيل معروف من قديم، فهذا أرسطو يقابل بينهما؛ لأن الذاكرة تشمل الصور التي سبق إدراكها في الماضي واختزنتها الذاكرة كما تحتفظ الخزانة بالأشياء، فالتذكر في هذه الحالة يؤدي إلى التمييز بين الماضي والحاضر، وبين الحقيقي والمتخيل. إننا نتذكر الواقع، ولكننا أحرار أن نتخيل ما نشاء. وفي ذلك يقول كانت: «إذا تخيلت منزلاً، ففي إمكاني أن أتمثل السقف في أسفله والأساس في الهواء، ولكني حين أتذكر منزلاً فأساسه دائماً في أسفل وسقفه في أعلى الهواء.» وهذا التأليف الوهمي يعتمد على معرفة عناصر البيت وأجزائه التي سبق إدراكها واحتفظت الذاكرة بها. والحال كذلك في الأحلام.

(١) الذاكرة أساس الشخصية

وليس للطفل الوليد شخصية؛ إذ ليس له ماضٍ، وليست له ذاكرة، وهو عند ولادته، ويظل كذلك بضعة أشهر، جزء من العالم كنقطة من ماء البحر، حتى يبدأ في تمييز أنيَّته، والشعور بوجوده ذاتاً مستقلة هي «الأنا»، في مقابل ما عداه؛ أي «اللاأنا». وإذا تأملت الطفل في الشهر السادس تجد أنه يقبض على الأشياء بيده ثم يُلقيها بعيداً عنه، ثم يطلبها حتى إذا قبض عليها ألقاها ثانية، وهكذا حتى يثبت عنده، أو في «ذاكرته» أن هذه الأشياء مختلفة عنه، وأن «أنا» الطفل مغايرة لهذه الأشياء، فإذا تتبّعنا تكوين هذه الأنا، وهي النفس، وهي الشخصية التي تُميّز هذا الشخص عن ذاك وهذا الفرد عن هذا الفرد، رأينا

أنها ليست شيئاً آخر إلا اجتماع الذكريات واختزانها عن الأشياء الخارجية التي نُدركها، وهذه الأشياء ذات فائدة لنا وهي التي نتعامل وإيّاها. وكلما كَبُرَ الطفل اتسعت أمامه دائرة هذه الأشياء، وأصبح لكل فرد عالمٌ خاص يعيش فيه ويذكره أكثر من غيره. سألني تاجرٌ صديق تلقى تعليمًا يسيرًا، فقال إنه يحاول أن يستكمل تعليمه وبخاصة اللغات كالفرنسية والإنجليزية لفائدتهما في عمله، ولكنه لا يُحسُّ في نفسه إقبالاً، ويضيق صدره إذا قرأ كتاباً، وتعلّم اللغات يحتاج إلى ذاكرة جيدة، مع أن النسيان ليس طبيعة فيه؛ لأنه يتذكر «فواتير» الحساب بأرقامها حتى بعد مُضي عدة سنوات، فما سبب هذا الفتور، وما علة ضعف ذاكرته في غير التجارة؟ وتعليل ذلك يسير؛ لأن شخصيته شخصية تاجر، فهو يذكر كل ما يتعلق بفته، والتجارة عنده هي العالم الذي يعيش فيه ولا يحفل بسواه. والحال كذلك في كل صاحب صناعة؛ فالممثل المطبوع بحفظ أدوار تمثيليته ولا يجد في ذلك مشقة؛ فالشخصية تمتص من العالم الخارجي ما يلائمها وتذكره ولا تنساه. إنها تفاعل بين الأنا واللاأنا، تحتفظ فيه الأنا بأمور وتُغفل غيرها، وهذه الأمور التي تحتفظ بها لا تتوقف على تأثير اللاأنا فقط، بل على استعداد الأنا الطبيعي. وهذا هو السبب في أن الأشقاء تختلف شخصياتهم مع أن تأثير البيت واحد. وكذلك تلاميذ المدرسة الواحدة الذين يعيشون معيشةً داخلية، ويخضعون لنظام واحد، ويتأثرون بمُعَلِّمين بأعيانهم، يختلفون فيما بينهم باختلاف أخذهم عن هذه التأثيرات.

والصفات المكوّنة للشخصية يكتسبها صاحبها من البيئة وتستقر في نفسه بالتذكر، ونعني بهذه الصفات الميل إلى الاجتماع أو الانطواء على النفس، وإلى العدوان أو المسالمة، وإلى النظام والترتيب أو الفوضى، وغير ذلك، فالشخصية هي مجموعة ذكرياتٍ معينة تُكتسب في الماضي وتظل مستمرة في الحاضر.

(٢) الذاكرة أساس الحياة العقلية

ذلك أن المعاني الكلية، وهي حَجَر الزاوية في الحياة العقلية، تُكتسب من النظر إلى المعاني الجزئية، فيحتفظ الإنسان بالمتشابه منها ويرتفع إلى تكوين معنى كلي، وهذا ميلٌ طبيعي، نعني القدرة على التعميم، تُعين الذاكرة عليه. ويبدو هذا الميل عند الطفل الصغير، فهو يعرف أباه ويميّزه رجلاً لأن له شارباً، فإذا رأى رجلاً آخر له شارب قال عنه «بابا». وعندما يكبر بعض الشيء، يجد أن الشارب ليس من الصفات الجوهرية التي تُميّز الرجال. وعلى هذا النحو يدرك الطفل عندما يبلغ الثالثة أو الرابعة المعاني الكلية العامة للأشياء

التي تُحيطه كالتفاح والبرتقال والباب والنافذة والعصفور والقطة والكلب وما إلى ذلك، حتى إذا قَدِّمَتْ إليه تفاحة مِيَّزها وعرف أنها من هذا الصنف.

وعلى هذا النحو أيضًا تنشأ المبادئ العقلية التي تُكتسب من التجارب وتُحتفظ بالذاكرة، مثل مبدأ التشابه الذي رأينا أنه أساس تكوين المعاني الكلية، ومبدأ السببية، وهو عماد العلوم. وقد أنكر الفلاسفة حقيقة هذا المبدأ وناقشوا صدقه وذهبوا إلى انعدام الضرورة التي تربط بين الأسباب والمسببات، كما فعل الغزالي وهيوم وكثير من المُحدثين. ويقول الغزالي في كتابه «تهافت الفلاسفة» ليست النار هي التي تحرق القطن؛ إذ يجوز في المستقبل أن ينعدم فعل النار. ولكن الطفل الصغير الذي لا يعرف النار ولا يعرف أنها تحرق، يرى ذلك لأول مرة، ويُجرب ذلك على نفسه، فإذا اقتربت يده من النار وأحسَّ بألم إحراقها، ثبت ذلك في ذاكرته، فلم يعاود اللعب بالنار، وأصبح يُدرك أن النار «علة» الإحراق، بل أكثر من ذلك يُعَمِّم الطفل السبب ويطلقه على الأمور المشابهة؛ ولذلك جاء في أمثال العامة: «الي يخاف من الثعبان يجري من الحبل».

حتى إذا ارتقت الإنسانية، واجتمعت لديها التجارب جيلًا بعد جيل، اشتدَّ ساعد العلم، وصاغ العلماء القوانين والنظريات. وليست القوانين العلمية إلا تلخيصًا واسعًا للمشاهدات يستند إلى الذاكرة، مثل قولنا الحرارة تُمدد الأجسام، والخشب يطفو على وجه الماء، والجسم المغمور في الماء يندفع من أسفل إلى أعلى بقوة تساوي حجم السائل المزاح، وهكذا.

وليست هذه القوانين من عمل فرد واحد، بل هي أثر اجتماعي نتيجة الحضارة ونتيجة الذاكرة الاجتماعية وتُقدِّم التجارب البشرية على مر الأجيال، حتى إذا ازدحمت العقول بالمعلومات، وعجز الفرد الواحد عن استيعابها في صفحة ذاكرته، احتاجت الإنسانية إلى وسيلة أكثر رسوخًا لحفظ هذه المعلومات، فاخترعت الكتابة، ثم الطباعة، وأنشئت المكتبات التي تزرخ بآلاف المجلدات والتي تختزن تاريخ الأمم وسير الأفراد والملوك وأنواع العلوم المختلفة مما لا يمكن أن تعيه ذاكرة فرد واحد.

وكلما ارتقت الحياة الاجتماعية وتقدَّمت الحضارة، أصبحت حاجة الإنسان إلى المعرفة الواسعة بالأحداث الجارية والماضية، وبالفنون المختلفة والصناعات المتباينة، وبالعلوم التي تقوم عليها هذه الفنون والصناعات أشد وألزم حتى يستطيع مسابقة ركب الحياة. هذا إلى أن الحياة الحديثة لا تحتاج إلى الثقافة العامة الواسعة فقط، بل إلى «التخصُّص» الشديد في كل فن، حتى لقد انقسم الطب إلى فروع، واختص في كل ناحية من كل فرع إخصائيٌّ، لا يتعدى أحدهم على اختصاص غيره. وهذا هو الشأن في الزراعة، كالذي يختص بزراعة

القطن، أو القمح أو الأرز، أو الخضر، أو الفاكهة. وقد رأيت في الريف قوماً ينقطعون إلى زراعة الطماطم، وآخرون إلى غرس الموز ويُسمَّى الواحد «مَوَازًا». وحدَّثني مزارع أنه مختص بزراعة البطاطس فقط، وكذلك الحال في التجارة وسائر الفنون والصناعات.

ولما كانت هذه المعلومات لا تحصل إلا بعد زمانٍ طويل، يقضي المرء بعضه في المدرسة، وبعضه في الحياة العامة، وكانت هذه المعلومات واسعة سعة عظيمة تشمل المطوَّلات من الكتب، احتاج الطلاب ولا ريب إلى ذاكرةٍ قوية منظمَّة يستعينون بها على تحصيل هذه المعلومات؛ وبخاصة لأن المجتمع الحديث يحكم على الفرد بمقدار علمه؛ أي بمقدار تحصيله، فلا يقبل صاحب العمل عاملاً أو موظفاً إلا بعد امتحان، ولا ينجح الطالب في المدرسة إلا بعد اجتياز الامتحان، ومن أجل ذلك برزت قيمة الذاكرة عاملاً هاماً من عوامل النجاح في الحياة.

ونشأت عن ذلك دراساتٌ حديثة تهدف إلى بيان أقوم الطرق للتذكُّر وأحفظها عن النسيان، وأجرى العلماء تجارب استخلصوا منها قوانين التذكُّر وقوانين النسيان، وانتَهَوْا إلى أن السبيل القويم لحفظ المعلومات واستحضارها عند الحاجة إليها هو حسن تنظيمها وتصنيفها، ثم ربطها بعضها ببعضها الآخر، وأن يكون الإنسان سيد ذكرياته يطلبها حين يحتاج إليها فتستجيب له حتى لا تصبح عبئاً ثقيلاً لا قيمة له.

ومع هذه الفوائد الكثيرة للذاكرة في سائر أنواع الحياة، فالنسيان مفيد في كثير من الأحيان، بل قد يكون ضرورياً. والذاكرة في واقع الأمر مزيج من الذكر والنسيان، حتى لقد ذهب بعض علماء العربية إلى أن لفظ الإنسان مشتق من النسيان.

ولا تعجب من قولنا إن النسيان ضروري للحياة النفسية؛ لأن ما تقع عليه أبصارنا كل يوم وكل ساعة وكل لحظة لا يدخل تحت حصر، وكذلك جميع ما يصل إلينا بطريق الحواس، فلو ذكرنا كل شيء لاختلط الجليل بالتافه، وامتزج المفيد باللغو والباطل. وقد حدَّثتُك عن ميل الطفل الطبيعي إلى صوغ المعاني الكلية التي يُركِّز فيها المجموعة الواسعة من المحسوسات، وحدَّثتُك عن اتجاه الحضارة إلى تلخيص العلوم في صيغة قوانين عامة تغني عن الجزئيات.

ثم إن الحياة بطبيعتها متطورة متغيرة يحتاج فيها المرء إلى ملاءمة نفسه مع هذه الألوان المتغيرة من الحياة، فيُضطر إلى تحرير نفسه من الماضي بنسيانه؛ ليتسنى له التوافق مع الحياة الجديدة؛ لذلك كان النسيان ضرورياً لحرية الإنسان، فلا يعاود حياته الماضية كما هي.

هذا إلى أن كثرة ترداد الذكريات الماضية يجعلها عاديةً أوتوماتيكية، فيصبح المرء كالألة، أو كالحيوان الذي يتصرّف بالغريزة، ويصبح عبدًا لها لا سيدًا حاكمًا صاحب سلطان عليها.

ويحتاج استخدام الذاكرة إلى اختبار، وينبغي أن نحسن هذا الاختيار إذا أردنا النجاح في الحياة، فلا ينفك المرء عبدًا لحياته الماضية يعيش فيها أبدًا ولا يخرج عن دائرتها. وكثيرًا ما يكون النسيان ردّ فعل طبيعيًا لسلامة الحياة واستقامتها؛ فقد تمر بالإنسان ذكرياتٌ فاجعة كلما استعادها تألّم الألم الشديد، كالذي ذهب ثروته أو فقد ابنه الوحيد، فإذا لم يستطع إلى النسيان سبيلًا بإرادته، أو لم تُعنه الطبيعة بفقدان الذاكرة، فضّل الموت على حياةٍ مملوءة بالآلام، فأقدم على الانتحار، والشواهد على ذلك كثيرة في التاريخ نذكر منها مأساة كليوباترا ومارك أنطوان.

صفحات الماضي وأغوار الزمان

ذاكرة المرء كتاب تُسَطَّر صفحاته على مر الأيام؛ فهي أشبه بالمفكرة التي يسجل فيها الإنسان يومياته، ويكتب فيها الأحداث التي مرت عليه ليرجع إليها في المستقبل عند الحاجة يقرأ ماضيه. وكلُّ منا يكتب يومياته في مفكرته على نحوٍ معين هو الذي يهمله، وكذلك ذاكرة كل واحدٍ منا لا تحتفظ إلا بما شاء أن يُسجَّله، فهي تُثبت وتمحو، تُثبت ما يهمنا، وتُغفل ما لا نحفل به، فلا تحسبن أن الذاكرة تسجل كل بادرة وخاطرة وواقعة.

وكما تُصاب اليوميات بأفاتٍ فتتآكل منها صفحات، ويبهت الحبر الذي تُكتب به بعض الصفحات وبخاصة القديمة منها، وقد يُنتزع منها بعض الصفحات فتتطاير وتضيع، وقد تُصاب بخرم تذهب معه بعض الأوراق، كذلك الذاكرة الإنسانية تُصيبها مثل هذه الآفات، فتضيع منها صفحات، ويبهت بعضها الآخر، ويُمحى بعضها الثالث، وكل ذلك في صفحات الماضي الذي سجَّله المرء خلال الحياة. وهذه الآفات هي التي يُعبر عنها بأمراض الذاكرة، وهي التي تُحدِّد أنواع النسيان، مما نفرد له فصلاً برأسه فيما بعد.

أما الآن فنودُّ أن نتحدث عن هذا الزمان الذي يضمُّ في صدره هذه الذكريات، ما هو؟ وعلى أي هيئة يكون؟

الزمان هو الماضي والحاضر والمستقبل.

أو هو ما فات وما هو آتٍ.

أما الآن أو الحاضر فهو نقطة وهمية في بحر الزمان؛ لأنك كلما أردت الوقوف عندها

مر بك الزمان، فإذا بها تصبح من جملة الماضي.

وإذا وقفت عند الحاضر واستغرقت فيه نسييت الزمان، ويطول هذا النسيان بمقدار

استغراقك فيما أنت فيه واستمتاعك به. وقد تمر بك الساعة كأنها لحظة، أو تمر بك

اللحظة وكأنها دهر. ومن المعروف أن الناس يقطعون الوقت بالحديث والسمَر والاستماع

إلى الموسيقى والذهاب إلى السينما أو دور التمثيل، فأنت تقطع الوقت بأن تستغرق في شيء خارجي يُنسبك نفسك فيُنسبك الزمان.

من أجل ذلك كان التذكُّر وثيق الصلة بالزمان، أو هو الزمان عند بعض الفلاسفة. قد ترى شخصاً فتُحدث نفسك أين رأيته، وتُفتِّش في ذاكرتك وتُقلب صفحات كتابها حتى تدرك أنك رأيته في الإسكندرية في مكانٍ معين من العام الماضي، وقد تُحدِّد الوقت أكثر من ذلك فتعرف اليوم والساعة. مهما يكن من شيء، فالذي يهمننا هو استحضار الذكرى من الماضي إطلاقاً، أما تحديدها في مكانٍ معين وزمانٍ معين فهذا شيء آخر مكمل للذاكرة الجيدة. ولنفرض أنك دخلت حجرة لأول مرة، فأدركت فيها الأثاث موضوعاً بشكلٍ معين، وأدركت الصور المعلقة على الجدران، ثم دخلت هذه الحجرة نفسها بعد عام، فإنك تدرك في الحال أنك قد سبق لك رؤية هذه الأشياء في زمنٍ مضى سواء عرفت الوقت الماضي تماماً في اليوم والساعة، أو عرفت فقط أنه كان في الماضي. أما إذا نسيته، ووقفت في هذه الحجرة وكأن كل شيء فيها جديد بالنسبة إليك، أصبح الماضي الذي مر بك كأن لم يكن، وإذا أنت تعيش في الحاضر فقط.

فالنسيان فقدان بعض أحداث الماضي، والنسيان المستمر فقدان الزمان. وهذه قصة امرأة اسمها نويمي Noémi (عن كتاب جان ديلاي) تبلغ من العمر الرابعة والستين، وقد أدخلها أخوها في مستشفى الأمراض العقلية؛ لأنها فقدت الذاكرة تماماً، وأصبحت لا تعيش إلا في الحاضر.

إنها تذكر اسمها ولكنها لا تذكر سنّها ولا عنوان سكنها، وهي لا تدري أنها كانت ذات مهنة مع أنها زاولت الطب ٢٥ سنة، وكانت تُشرف بنجاح على أحد المستشفيات. إنها لا تكاد تقرأ الصحيفة حتى تنساها، وتنسى الإجابات عن الأسئلة، والزوار الذين يحضرون لرؤيتها، وتعتقد أنها ترى وجوه المتصلين بها منذ مرضها لأول مرة مع أنها تراهم كل يوم.

وقد حُيِّل إلى بعض الفلاسفة أن الزمان ليس شيئاً خارجياً له حقيقة واقعة، بل هو من أنفسنا، كما ذهب إلى ذلك كانط فقال: إن الزمان صورة عقلية أولية نفرضها على الأشياء حين ندركها. ويقول برجسون في كتابه «المعطيات المباشرة للشعور»: إن التعاقب الذي نراه في مرور عقارب الساعة، إنما يُوجد بالنسبة لملاحظٍ شاعر يتذكر الماضي. ينشأ إدراك الزمن والإحساس به من تقلب المظاهر الخارجية مع اختلافها في النوع والشدة وتناسبها في الإيقاع، كاختلاف الليل والنهار، وانتقال الشمس من المغرب إلى المشرق

وما إلى ذلك، فإذا كنا في النهار ذكرنا أننا كنا بالأمس في الليل، ولو نسينا ذلك الليل ما أدركنا هذا التعاقب. ولو عشنا في ليلٍ مستمر ما عرفنا الأيام. وقد حكى مسجون وُضع في زنزانه لا نوافذ لها ولا إضاءة فيها أنه لم يُعد يعرف الوقت. وعند زوال تعاقب الأشياء واختلافها نفقد الإحساس بالزمان الذي يدور، أو بالأشياء التي تتحرك داخل الزمان. وهذا ما يحدث لمن يجلس على شاطئ البحر الهادئ ويستغرق في النظر إليه، فينسى كم لبث وينسى الزمان. ولذلك كان النوم الهادئ العميق من الفترات التي يقطعها المرء خارج الزمان. ونحن لا ندرك كم مضى علينا من الوقت في النوم إلا حين ننظر إلى المظاهر الخارجية، فنرى أن النور قد أشرق، ونعلم أن الصباح قد طلع، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿أَوِ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ (البقرة: ٢٥٩).

ومع ذلك فالإنسان يستطيع إدراك الوقت دون الاستعانة بمقياسٍ خارجي، كالساعة الدقاقة مثلاً، يدركه وهو نائم، فإذا كنتَ معتاداً أن تستيقظ في الصباح الساعة السادسة كل يوم لتذهب إلى عملك، فإنك تستيقظ في هذا الموعد تماماً حتى لو كان اليوم يوم عطلة. وروى شخص أنه لم يكن معتاداً النوم بعد الظهر أبداً إلى أن اضطجع ذات مرة على أريكة، فأخذته النوم عصرًا واستيقظ عند الأصيل فرأى النور باهتاً قبل الغروب، فحُيِّل إليه أنه قد استيقظ في الفجر قبل الميعاد، فأغمض عينيه ليكمل نومه، ولكنه لم يستغرق في النوم، ففتح عينيه ليرى أن الظلام قد أصبح دامساً، وعندئذٍ فقط أدرك أنه كان قد نام بعد العصر. ورؤي عن بعض الفلاسفة المُحدثين أنه لم يكن يحمل ساعة اعتماداً على إحساسه الشخصي بالزمن. وهكذا كان الناس يفعلون قبل اختراع الساعات الدقاقة.

جملة القول: الذاكرة هي التي تمدُّنا بالإحساس بالزمان وتعاقب الأحداث، وهي التي تُهيئ لنا سبيل قياس الزمان.

والذاكرة هي التي تمدُّنا بفكرة الزمان المستقبل قياساً على الماضي، والواقع أننا لا نبصر المستقبل، بل نتبصره، أو نتوقعه. والحياة في جملتها حركة إلى الأمام يعمل الإنسان حسابها بمقتضى ما فات. ولو ذهب عن الإنسان هذا المعنى لأصبح كالحيوان الذي يعيش في حاضره، أو تُكَيِّفه الظروف الخارجية، أو تدفعه الغريزة العمياء، أو كالوليد الرضيع الذي لا يملك لنفسه نفقاً ولا ضراً، ولكنه يعيش مع ذلك.

ولسنا نحيا حياة الوليد الذي لم يدرك بعد، بل حياة العقلاء الذين يعتمدون على ماضيهم في العمل مستقبلاً. ولقد استطاع الإنسان أن يُجرِّد فكرة الزمان، وأن يستخلصها،

وأن يمضي بها في المستقبل إلى غير نهاية، فنشأت من ذلك فكرة «الأبد» وهو لا نهاية الزمان في المستقبل، كما أن «الأزل» لا نهاية الزمان في الماضي، وكان الأزل والأبد عماد سائر الأديان عند المتحضرين، بل لقد طبق الإنسان هذه الفكرة على نفسه، فاعتقد في خلود الروح بعد فناء البدن.

فالذاكرة هي التي تمدُّنا بفكرة الزمان ماضيه وحاضره ومستقبله، فالذاكرة والزمان متصلان اتصالاً وثيقاً.

وقد أجرى بعض العلماء أبحاثاً لبيان هذه الصلة سواء عند الحيوان أو عند الإنسان فيما يختص بما سمَّوه «الزمان الحيوي» أو البيولوجي والزمان الحيوي متصل بالحاجات البيولوجية كالطعام والشراب واليقظة والنوم وإخراج الفضلات وما إلى ذلك. وهذا الزمان الحيوي أساس الذاكرة الآلية التي حدَّثك عنها.

وقد أثبت العالم الروسي بافلوف هذه الصلة عند بحثه عن الأفعال المنعكسة المتعلقة بشرط. وفي تجربته المشهورة على الكلب، كان يُقدِّم له الطعام في وقتٍ معين فيفرز الكلب اللعاب عند رؤية الطعام؛ لأن الطعام مؤثِّر طبيعي يدفع إلى إفراز اللعاب. وكان يدقُّ مع تقديم الطعام جرساً، وبعد عدة مرات كان يكفي أن يسمع الكلب دقَّة الجرس حتى يفرز اللعاب.

ونحن كذلك نُحقِّق حاجتنا الطبيعية في مواعيدَ تعلَّمنها وتعوَّدناها طبقاً لدورة زمانية لا تخطئ، فإذا حان موعد الغداء شعرنا بالجوع، ويقضي الطفل الرضيع حاجته في مواعيدَ دون أن يلوث فراشه. وإذا تعوَّد أحدنا أن يستيقظ في ساعةٍ معينة استيقظ في هذا الموعد حتى في أيام العطلة. وأول أيام الصوم في رمضان يكون عسيراً لخروج المرء عما ألفه، وفي بعض الأحيان ينسى الصائم فيأكل نهائراً. ومن الفكاهات التي تُروى أن صائماً دخل المسجد يُصلي الظهر جماعة، فتحسَّس جيبه فوجد فيه بلحاً، فأخرج بلحاً وأخذ يأكلها، فغمَزَه جاره يريد أن يُنبِّهه ويَنهَرَه، فقال له: «والله هذه آخر بلحة وليس معي غيرها.»

وذهب بعض العلماء في مباحثهم الأخيرة إلى أن الغدة فوق التلموسية Hypothalamic هي التي تحتفظ بالإيقاع الزمني الناشئ من الدورات الحيوية كالجوع والعطش والنوم وما إلى ذلك؛ فهي أشبه بالساعة الدقاقة للكائن الحي.

والذاكرة هي أساس الزمان الاجتماعي، هذا الزمان الذي اصطلح المجتمع عليه في تسيير أموره وضبط أحوال معاشه؛ فقد اهتدى قدماء المصريين إلى السنة الشمسية لحاجتهم إلى الزراعة ومعرفة مواعيد الحرث والبذر والحصاد، وأصبح الزمان موضوعاً

خارجياً يُقسَّم إلى أعوام، وتُقَسَّم السنة إلى فصول وإلى أيام. ولم يكن الزمن في أول الأمر ثابتاً موضوعياً كما أثبت دوركهيم وماوس في أبحاثهما الاجتماعية، بل نشأ أولاً في ضمير الشعوب البدائية لخدمة الاحتفالات الدينية والأعياد والمواسم، ثم نشأ التقويم السنوي تابعا لهذه الاحتفالات والأعياد، ثم انتقلت فكرة الزمان من الذاتية إلى الموضوعية وأصبح الزمان عامًّا للمجتمع بأسره، لا ملكاً لشخص، حتى أضحي الفرد مضطراً إلى التزام توقيت المجتمع الذي يعيش فيه والخضوع لقيوده. وإذا كره الإنسان المجتمع هرب منه، وهرب من هذه القيود، وتحلَّ من هذه الالتزامات، فترى الطالب يذهب متأخراً إلى مدرسته، وكذلك الموظف إلى عمله، أو يستعين المرء بما يجعله ينسى الزمان، فينغمس في شرب الخمر، أو تدخين الأفيون والحشيش، وهذا ما بيَّنه مورو دي تور وكوينسي وبودلير في مذكرات آكل الأفيون، حيث يُخَيَّل للمدمن أن الدقيقة دهر، وأن اللحظة التي يعيشها أبداً لا ينتهي. وإنما استطرَدنا إلى الكلام عن الزمان؛ لأنه أساس الذاكرة يحتوي في صدره على سر الأحداث الماضية ويطويها في زوايا النسيان.

وإذا أسفر الزمان عن وجهه، أشرقت الذكريات.

وإذا احتجب، حجبها معه وغابت عن الأنظار.

فما هي علة إشراقه؟ وكيف تُسجَّل الأحداث على صفحة الزمان؟

وما سبب احتجابه؟ وكيف تختفي الذكريات في خبايا النسيان؟

هذا هو موضوع الفصول المقبلة حيث نتحدث في الفصل الآتي عن طرق التعلُّم والاكْتِسَاب، وعما سمَّاه العلماء بـ «خط التعلُّم» وكيف يتجه صاعداً على مر الأيام؛ لأن النسيان متوقف على التعلُّم، فكلما كان التعلُّم أجود وأنظم وأثبت كان النسيان أقل وأبطأ. وإذا أردنا أن نعالج النسيان فعلياً أن نحسن التعلُّم، ثم نتحدث في الفصل الذي يليه عن «خط النسيان» الذي يتجه هابطاً على عكس خط التعلُّم الذي كان يتجه صاعداً، وكلا الخطَّين يبيَّنان التعلُّم العادي والنسيان السليم. أما الشذوذ في النسيان الذي يُعد مرضاً فهذا باب آخر.

ولا نودُّ في هذا الكتاب الصغير أن نشير إلى مذاهب القدماء الذين زعموا أن النفس تعلم كل شيء قبل اتصالها بالبدن، حتى قال أفلاطون إن العلم تذكير والجهل نسيان. أو مذاهب الذين يعتقدون في علم النفس بعد مفارقتها البدن سواء في حالة الحياة أم بعد الموت، كما زعم الرئيس ابن سينا وغيره؛ لأن هذه المباحث تُخرِجنا عن نطاق العلم.

خط التعلم

حضرتُ العام الماضي «سيرك مدرانو» الذي نصب خيامه بالقرب من ميدان محطة مصر، ولم يكن الدافع لي مجرد اللهو وتزجية الفراغ أو الترويح عن النفس، بل للتأمل والدرس والاطلاع على تجارب واقعية، أو نتائج التجارب التي أجراها أصحاب السيرك — وهم أشبه بالحواة — على حيوانات يُخيل إليك أنها أبعد الأشياء عن التدريب والترويض، كالسبع والفيل والنمر والخيول والكلاب وغير ذلك.

وقد يُخيلُ إليك أن السبع يسمع كلام مُروّضه، كما يسمع الطفل المطيع كلام أمه ويُنفذ أمرها، فيصعد درجًا، ثم يقفز من خلال حلقةٍ ملتهبة بالنار، ثم ينزل الدرج من الناحية الأخرى، فكيف وصل المروّض إلى تدريب هذا الوحش وتأديبه حتى يبلغ به هذا الحد من السلوك المخالف لطبعه من جهة، والمقيد بنظامٍ دقيقٍ موقوت لا يخطئ من جهةٍ أخرى؟

فن الترويض خاضع لقوانينٍ نفسانية، وهذه القوانين تُعمُّ الحيوان الأعجم والإنسان الذي يدرك ويفهم.

فالإنسان حيوان ولا يمتاز عن سائر الحيوانات إلا بالكلام، ولذلك عرّفوا الإنسان بأنه حيوانٌ ناطق.

وهو يتعلم الحركات الآلية كما يتعلم الحيوان، ويتعلم فوق ذلك كيف يتكلم أي لغة، وقد يتعلم عدة لغات إذا احتاج إلى التفاهم مع قوم يتكلمون بغير لسانه، بل أصبح الإنسان مع تقدّم الحضارة وانتشار التعليم في حاجة إلى تعلّم لغةٍ أخرى أجنبية أو عدة لغات؛ ليطلع على ثمار الأفكار وقرائح العقول وأحدث المخترعات وآخر الاكتشافات العلمية حتى يُسائر ركب الحضارة.

واللغة ألفاظ تحمل معاني. واللفظ رمزٌ إذا لم تفهم معناه أصبح مجرد صوتٍ يصعب تذكره. وليست الألفاظ هي الرموز الوحيدة التي تجري بين الناس في المجتمع؛ فالحساب والجبر والقوانين العلمية المختلفة رموز كذلك. وما معنى س + ص = كذا؟ وما معنى جدول الضرب؟ ومع ذلك فالطفل حين يذهب إلى المدرسة مضطر إلى تعلُّم هذه الرموز اللغوية والحسابية وغيرها، على الرغم من خلوها من المعنى وظهورها بمظهر التلاسم. ولذلك يشقى التلميذ في تعلُّم هذه الأمور، وليس له من سبيل إلا أن يلجأ إلى الذاكرة الصمّاء. فالذاكرة منها آليةٌ حركية، ومنها لفظية وهي التي سمّيناها في أول الكتاب ذاكرة المعرفة، وهي المخصصة للإنسان.

وقد أجرى العلماء تجاربَ كثيرة على كلا النوعين من الذاكرة. ولنبدأ بالذاكرة الآلية ولننظر كيف يتعلم الحيوان.

ومن التجارب المشهورة تجربة «المتاهة»، وهي صندوق يُقسَّم من الداخل بعوارضٍ يتيه فيها الحيوان، الذي يتحرك بدافع من الجوع وطلب الطعام الموضوع في الجانب الآخر. ويلاحظ أن الحيوان يندفع هنا وهناك، وكلما رأى الطريق مغلقاً عاد وجرب الاتجاه في طريق آخر، حتى يهتدي إلى الطريق الصحيح. وأول من أجرى هذه التجربة هو العالم النفساني يركس Yerkes من أئمة المذهب السلوكي، وذلك منذ نصف قرن مضى، فوضع سُلحفاً في صندوق متاهة وجلس يراقبها فبلغت الهدف بعد ساعة وخمس وثلاثين دقيقة. وفي المرة الخامسة استغرقت السُلحفاة ١٦ دقيقة. وفي المرة العاشرة ٤ دقائق، وفي المرة العشرين ٣ دقائق و٢٠ ثانية.

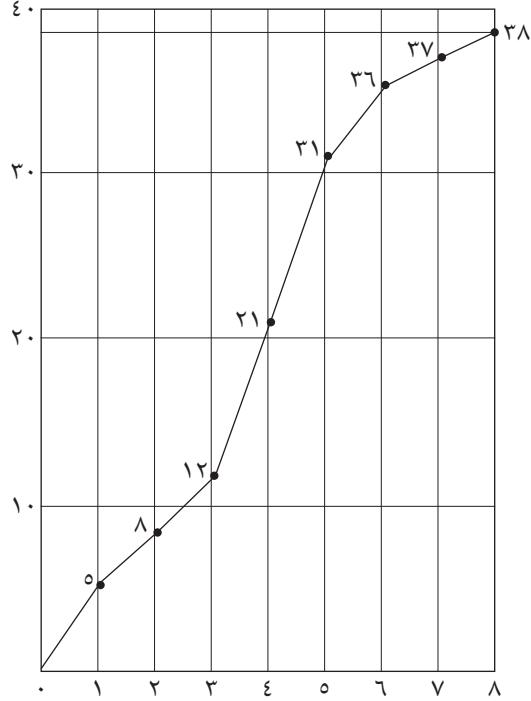
فالسُلحفاة تتعلم من التجربة وحذف الأخطاء Trial and error.

والإنسان يتعلم على هذا النحو أيضاً. ولنفرض أن السيد مصطفى عبد العزيز أراد أن يتعلم الآلة الكاتبة، فاشترى آلة حملها إلى منزله، وجلس أمامها وأخذ يجرب كتابة رسالة إلى صديق، وكانت تبدأ كما يلي: «حضرة السيد محمد أبو ريشة». فلما أراد أن يكتب السطر التالي رأى غلطاً كثيراً في السطر الأول، قاف بدلاً من ضاد، واو بدلاً من راء، وهكذا، فإنه يضيق ويعاود ثانية، ويحاول تجنُّب الأخطاء الأولى، فيجد أنه تحسَّن بعض الشيء في المرة الثانية، فيعاود الثالثة، ومن جملة هذه المحاولات التي يتجنَّب فيها الأغلاط السابقة يتحسَّن تعلُّمه ويسير إلى الأمام.

خط التعلُّم

وإليك نتيجة التجربة التي أجراها بيرون Piéron على شخص يُجَرَّب بقلم الآلة الكاتبة في عبارة معينة:

عدد المحاولات ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١
عدد الضربات الصحيحة ٣٨ ٣٧ ٣٦ ٣١ ٢١ ١٢ ٨ ٥



رسم بياني يوضح تقدم التعلُّم.

يخضع خط التعلُّم هنا لأمور ثلاثة: المحرك، وعدد مرات المحاولة، والمكافأة. أما المحرك فهو الباعث الخارجي الذي يشترك إليه الحيوان أو الإنسان، فيندفع بجميع قواه النفسية إلى بلوغه؛ فالسلاحفة تريد بلوغ العُش، ومصطفى عبد العزيز يريد تعلُّم الآلة الكاتبة لنفعها في عمله.

والأصل في المحرِّك أن يكون طبيعيًّا، ولذلك كان التعلم طبيعيًّا في الكائن الحي، فطلبُ الطعام، والانعطاف نحو الجنس الآخر، وبعض الحاجات الفسيولوجية كلها محركاتٌ فطرية، وهي الأصل كذلك في تحريك الإنسان، لولا أنه مع الحضارة ظهرت محركاتٌ جديدة دعت إليها الضرورة الاجتماعية، كالمال، والمنازل الاجتماعية المختلفة التي تجلب السلطان أو الشهرة أو المجد، والعلم، وغير ذلك.

ولا تزال الوظائف الحكومية هي المحرك الأكبر لهمة الشعب في مصر، والسبيل إلى بلوغها هو الالتحاق بالمدارس والحصول على «الشهادة»؛ لأنها مُسوِّغُ التعيين في الوظيفة. وحين اجتمعت كلمة الأمة على إخراج الإنجليز من منطقة قناة السويس، ورأى المصريون ألا سبيل إلى إجلائهم إلا بالقتال، تهافتوا على تعلُّم السلاح واستعماله، وأنشئت معسكرات التدريب في حرم الجامعة وفي غيرها من الميادين، فكان إجلاء الإنجليز هو المحرك لتعلُّم الفدائيين.

فإذا فعل المحرِّك فعله، وبعث الهمة، واندفع الإنسان يتعلَّم، فليس يكفي مرةً واحدة يُجرَّب فيها السلوك الجديد كي يتقنه، ولا مرتان، بل مراتٌ كثيرة يتحسن خلالها، ويسير «خط التعلم» كما رأينا إلى الأمام بسرعة، ثم يبلغ حدًّا يقف عنده.

فالتكرار ضروري في تثبيت الحفظ وتمكين التعلم.

أما لماذا يميل الحيوان أو الإنسان إلى تكرار ما سبق فعله، فذلك متوقفٌ على قانون سماه الأستاذ ثورنديك «قانون النتيجة» Law of effect، فالسلحفاة حين تبلغ العش وهو هدفها أول مرة ترتاح، وكذلك الذي يتعلم الآلة الكتابة حين يصيب الحرف الصحيح يفرح ويشعر بلذة، هي لذة الظفر والنجاح. والنصر عند بلوغ الهدف مكافأة تُعوِّض الإنسان عن متاعب السعي وتُنسيه آلام الكدح، فالعمل الذي يُحقِّق حاجة الإنسان يحتفظ به ويميل إلى تكراره، هذا هو منطق قانون النتيجة. ويميل بعض العلماء إلى تعليل هذا القانون، بأن الأعصاب تظل في حالة توتر حتى يبلغ الكائن غرضه فترتخي أعصابه ارتياحًا. والحيوان يميل إلى الارتخاء لا إلى التوتر، ولذلك يُكرَّر ذلك العمل.

هذا هو تفسير التكرار الجسماني وأثره في اكتساب المهارة، أما التكرار اللفظي وأثره في الحفظ فله تعليل آخر نذكره فيما بعد.

وللتعلُّم طريقٌ آخر خلاف المحاولات والابتعاد عن الغلط هو «التعلُّم الشرطي» الذي بيَّن أساسه العالم الروسي بافلوف وتجربته على الكلب الذي يسيل لعابه عند دق الجرس قد عرفناها من قبل. وقد حدَّثتك في أول هذا الفصل عن الحيوانات التي يشاهدها المتفرجون

في السيرك تقوم بالعجيب من الأفعال. ومن المشاهد المألوفة عندنا القرداتي الذي يعرض فنه على الجمهور فيطلب من القرد أن يضرب «تعظيم سلام»، فيقف على قدميه الخلفيتين ويرفع يديه للتحية. أو العرب الذين يُرَقِّصون الخيل على صوت الموسيقى، وقد سألتُ أعرابياً كيف درَّب حصانه على الرقص، وعجبتُ أن الحصان على غير ما أعتقد لا يسير على توقيع الوزن الموسيقي، بل الراكب هو الذي يشدُّ اللجام شداً معيناً ويضربه بالمهماز ضرباً خاصاً، بحيث يستجيب الحصان للشدِّ والهمز، فيُحَيِّل إليك أنه يستجيب من تلقاء نفسه للموسيقى. ويعتمد هذا التدريب كله على مبدأ ربط المؤثر الطبيعي بمؤثر جديد، بحيث يتعلق المؤثر الطبيعي بهذا «الشرط»، ومن أجل ذلك سُمِّي ذلك التعلُّم شرطياً؛ أي متعلقاً بشرط جديد؛ ففي المراعي الواسعة حين يرغبون في رد المواشي عن الأسوار ويُرغمونها على البقاء داخلها، يُكهربون الأسوار حتى إذا هجمت عليها البقرة أَحَسَّت بلسعة الكهرباء في أنفها، وفي الوقت نفسه ترى السور، وعندئذٍ يكفي أن ترى البقرة السور فتبتعد عنه. ونحن نتعلَّم، ونُعلِّم أبناءنا، ونُعلِّم الشعب، طبقاً لهذا القانون. نحن نُعلِّم الطفل الوليد قضاء حاجته في مواعيد وفي إناءٍ خاص. ونُعلِّم أفراد الشعب الذين يقودون السيارات أن يقفوا في الطريق عند رؤية الضوء الأحمر؛ حتى يصبح ذلك عملاً آلياً يكفي أن يرى السائق النور الأحمر فيقف، ومع ذلك قد ينسى، وهذا منشأ حوادث السيارات.

(١) فما علة هذا النسيان؟

لا ريب أن الذي يتعلَّم قيادة السيارات يخطئ في البداية، وكلما طال به الزمن ورسخت في نفسه العادة قل خطؤه؛ فأول شرط في عدم النسيان كثرة التكرار ورسوخ العادة. وهناك أسبابٌ أخرى نذكرها في موضعها.

ونسيان الأعمال الآلية محتمل، وقد تترتب عليه نتائج خطيرة؛ ولذلك ينبغي أن يأخذ المرء حذره حتى لا ينسى فيضر نفسه أو غيره؛ فمدرب النمر أو الأسد في السيرك يمسك بيده مسدساً خشية نسيان الوحش ما تعلَّمه ورجوعه إلى توحُّشه. وقد ينسى الجراح مشروطاً أو مقصداً في بطن الجريح بعد إجراء العملية، ولذلك يَعدُّون المشارط قبل العملية وبعدها توقياً للنسيان.

وهناك مبدأ آخر خلاف المحاولة والغلط والتعلُّم الشرطي هو التعلُّم عن طريق «المحاكاة»، سواء عند الحيوان أو عند الإنسان. ونحن نتعلَّم كثيراً من ألوان السلوك الاجتماعي عن هذا الطريق، نكتسبها من الأب والأم والأهل في الأسرة، ومن المجتمع الذي

نعيش فيه؛ كطريقة الأكل والملبس والمشي والنطق والصلاة في المسجد أو الكنيسة، وآداب السلوك المختلفة وغير ذلك.

غير أننا حين نُرسل الطفل إلى المدرسة، نطلب منه تعلُّم اللغة والأدب والحساب والجبر والهندسة والطبيعة والكيمياء وعلوم الأحياء، ولا ننتظر منه أن يتعلم بطريق المحاولة والخطأ أو الشرط أو التقليد، بل لا بد أن «يحفظ» هذه العلوم ومبادئها عن ظهر قلب؟ لأنها أساس لا غنى عنه في كسب العلوم بعد ذلك، مثل القرآن الكريم وهو أساس الدين واللغة والعربية، أو على الأقل بعض أجزائه، ومثل المحفوظات في اللغة نثرًا أو شعرًا يتأدَّب بها المرء ويتفصَّح لسانه ويعلو بيانه، ومثل جدول الضرب في الحساب، ومنطوق النظريات الهندسية، وبعض القوانين في الميكانيكا والطبيعة والكيمياء، وما إلى ذلك.

هذه المحفوظات جميعًا تُسمَّى «لفظية» على خلاف الأعمال العادية التي ندرَّب عليها ونَمهر في أدائها. والسبيل إلى تعلُّمها وحفظها هو تَكَرُّرها وتسميعها عدة مرات حتى تثبَّت في الذهن. وقد أجرى العلماء على هذا الضرب من التعلُّم اللفظي عدة تجاربَ وخرجوا أيضًا بخط للتعلُّم، وبيَّنوا أثر مرات التَّكرار، وفائدة التسميع، وفضل التَّكرار الموزَّع على عدة أيام.

وقد رُوِيَ عن قوم وُهبوا ذاكرةً قوية تستطيع حفظ ما يُلقي عليهم أو ما ينظرون فيه بعد مرة واحدة، وهذا نوعٌ من الشذوذ لا ينطبق على أغلبية الناس.

رُوي أنه كان المتنبي يجلس في شبابه إلى ورَّاقٍ فوجد عنده كتابًا من كُتب الأصمعي يتكون من نحو ثلاثين ورقة، فأخذ ينظر فيه طويلاً. قال له الورَّاق: يا هذا أريد أن أبيعه، وقد قطعَنتي من ذلك، فإن كنت تُريد حفظه في هذه المدة القصيرة فبعيد. فقال له المتنبي: إن كنتُ حفظته فما لي عليك؟ قال: أهبُّ لك الكتاب. ثم أخذ الورَّاق الكتاب، وجعل أبو الطيب يتلوه عليه إلى آخره، ثم أخذه وجعله في كُمِّه وقام، فعلق به صاحبه وطالبه بالثمن، فقال: ما إلى ذلك سبيل، قد وهبته لي. فتركه عليه.

ويُروى عن أحد الخلفاء أنه كان على استعدادٍ أن يدفع وزن القصيدة ذهبًا إذا كانت جديدة، وكان عنده ثلاثُ جوارٍ؛ الأولى تحفظ القصيدة بعد سماعها مرة واحدة، والثانية بعد مرتين، والثالثة بعد ثلاثِ مرات، فإذا تقدَّم شاعر إلى بلاط الخليفة، جعل الجواري خلف الستر، وطلب منه إنشادها، فسمعها الأولى، فيقول الخليفة هذه قصيدةٌ معروفةٌ وعندي جارية ترويها. فترويها الجارية الأولى، ثم الثانية، ثم الثالثة، فيخرج الشاعر بغير

خط التعلُّم

جائزة. وعرف الشعراء الحيلة، فتقدَّم شاعر بقصيدة معقَّدة يصعب حفظها مطلعها «صوتُ صفيرِ البلبل»، فعجز الجواري عن تسميعها.

ويُستفاد من هذه القصة أن حفظ الأشياء ذات المعنى أيسرُ مما لا معنى له. وإنما يسهلُ حفظُ ما له معنى؛ لأنك تستطيع «ربطه» بشيءٍ آخر، وأن تصله بجملة ما تعلَّمته من قبلٍ وأدركتَ معناه.

ويلجأ العلماء في تجارب الحفظ إلى اصطناع مقاطع لا معنى لها وذلك لقياس المقدرة الصرفة على الحفظ. وفي بعض الأحيان يُجربون التجارب على حفظ أرقام؛ لأن الأرقام لا معنى لها، وكذلك الحال في حفظ الرموز الجبرية والاصطلاحات. لا ريب أن حفظ هذه الأشياء أبطأ، ولكن الذهن البشري يصل مع ذلك إلى حفظها، مع التَّكرار، وبقانون التلازم أحد قوانين الترابط الثلاثة، وهي التلازم والتشابه والتضاد.

والتلازم ضروري في الحفظ، وهو عبارة عن تجاور الألفاظ. ومعظم الأطفال يحفظون عن ذلك الطريق، وتُسمَّى الذاكرة حينئذٍ «صمَّاء» أي ذاكرة لفظية بغير معنى؛ ولذلك يلاحظ أن الذين يحفظون بهذه الطريقة يُكرِّرون ما حَفِظوه كاللبغاء، وإذا توقَّف أحدهم أو نسي، يكفي أن تذكُر له أول كلمة في بيت الشعر فيُكرِّر البيت.

وإليك نتيجة إحدى التجارب التي أجراها الأستاذ جوييه Guillet على شخصٍ إنجليزي يتعلَّم ألفاظاً يابانية لا معنى لها بالنسبة له، لبيان أثر مرات التَّكرار في تقدُّم التعلُّم.

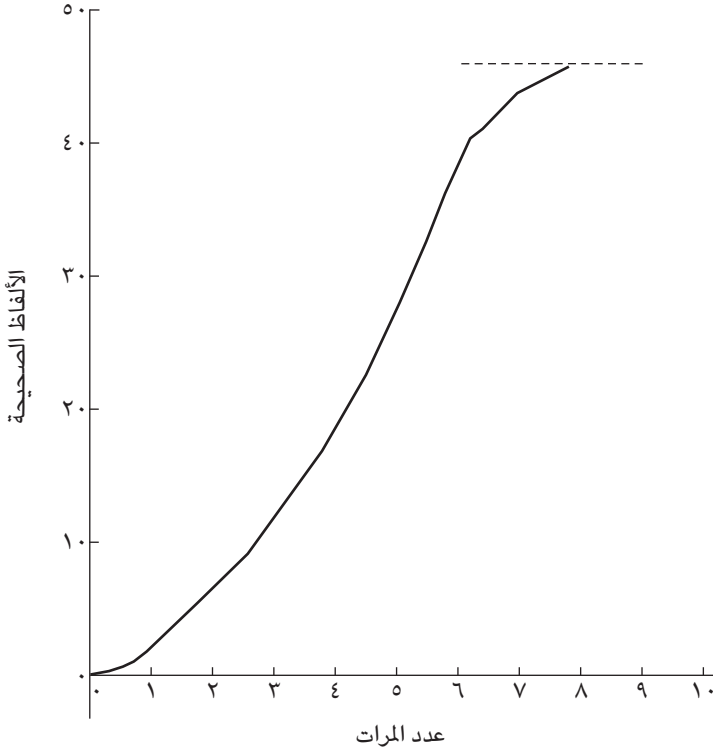
عدد المرات	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
الألفاظ الصحيحة	١	٥	٩	١٥	٢٢	٣٠	٤٠	٤٤	٤٦

وسوف نتحدث عن «خط التعلُّم» إطلاقاً سواء أكان خاصاً بالأعمال الآلية أم المحفوظات اللفظية. وقد درس العلماء هذا الخط، وتتبعوا أشخاصاً سنواتٍ عدة، وأجروا عليهم اختباراتٍ كثيرة بين حين وآخر لمعرفة أثر التعلُّم.

إذا تأملت في الرسم البياني رأيت خطأً أفقيًا، وآخر رأسيًا، وجرت العادة أن يكون الخط الأفقي خاصاً بمقدار التعلُّم، والرأسي يعتمد على الأول ويبيِّن إما مقدار الغلط، أو الزمن المستنفد، وما إلى ذلك.

ولا يجري خط التعلُّم في استقامة، بل يعلو ويهبط غير منتظم؛ لأن قدرة المرء تتذبذب من لحظة إلى أخرى ومن يوم إلى يوم، وهذا يرجع إلى الحالة الجسمية التي تتأثر بالنوم

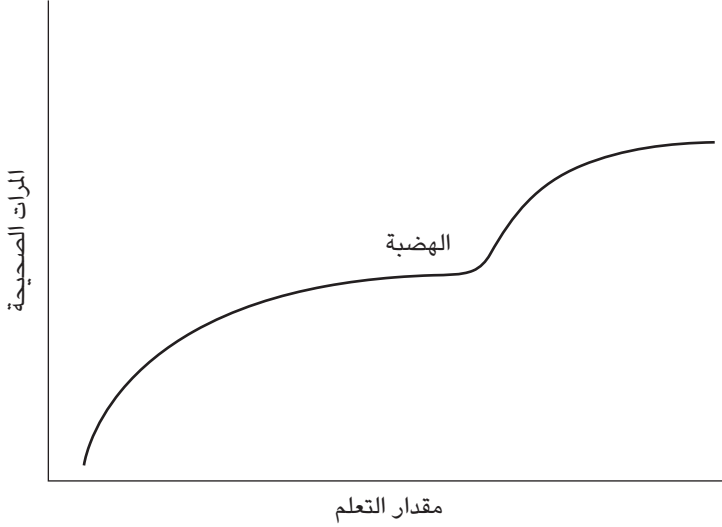
النسيان



والهضم وغير ذلك. يُضاف إلى ذلك أن المتعلم لا يستمر إلى غير نهاية، بل يتوقف بين حين وآخر، وقد تطول فترات التوقف أياً ما أو شهوياً. وإذا طال زمن التعلم سنوات، أشار خط التعلم إلى ما يُسمى بالهضاب. و«هضبة التعلم» تدل على الثبات عند حد معين بلغه الشخص، ويستمر واقعاً عنده. مثال ذلك الذي يتعلم البلياردو فيصل بعد مدة إلى مستوى معين من الإصابات الصحيحة في الساعة، وليكن أربعين، ثم يحاول بعد عام أن يعدّل من فنه فيرتفع إلى ستين، وهكذا. وهناك عوامل كثيرة تُعين على سرعة التعلم.

منها قوة الانتباه، أو التذكّر بالقصد والإرادة؛ فقد ثبت من بعض التجارب في علم النفس — ولم يكن الغرض فيها قياس الذاكرة — أن المجرب عليهم لم يتذكروا من اللوحة التي عُرِضَتْ عليهم إلا القليل جداً. ولذلك يجب البحث في شهادة الشهود في المحكمة؛ إذ قد

خط التعلم



تقع حادثة أمام عدد من الناس، فيُطلبون للشهادة، فينسى معظمهم تفاصيل ما دار بين الخصوم من حديث ومشاجرة وما إلى ذلك؛ لأن كثيراً منهم لا يُلقون إلى أصحاب الحادثة بالاً، ولا يحسن التذكُّر إلا مَنْ انتبه إليهم بوجهٍ خاص.

يُروى في هذا الباب أن شاهداً أدلى بشهادته أمام محكمة الجنايات في جريمة قتل، وأجاب عن أسئلة المحكمة وبخاصة ملابس المتهم ولونها عندما أطلق النار على المجني عليه. وناقشه المحامي، فأدار له ظهره، وسأله ما لون الكرافطة التي يلبسها؟ وأخطأ المتهم في معرفة اللون، فطلب المحامي استبعاد شهادته؛ إذ كيف يطمئن المرء إلى شهادته عن المتهم وهو لا يذكر ما يراه الآن. غير أن مرافعة المحامي تقوم على مغالطة نفسانية؛ لأن الشاهد كان مُنتبهاً إلى المتهم فلاحظ ملابسه وتذكَّرها؛ ولم تكن هناك حاجة إلى ملاحظة المحامي والانتباه إلى مظهره. ويُسمَّى العلماء هذا الضرب من الذاكرة، بالذاكرة العَرَضِيَّة Incidental memory، وأثبتوا أن مقدار ما تحتفظ به أقل كثيراً من الذاكرة الإرادية التي تكون عن قصد. ويُعزى إلى هذا العامل أيضاً ضعف ذاكرة الأطفال؛ لأن قدرتهم على الانتباه أقل من قدرة الكبار.

ومن أقوى العوامل على سرعة الحفظ وقوة التعلم وثباته «الاهتمام» Interest. وقد رأيت قوماً يشكون من ضعف الذاكرة، وبخاصة الطلبة، على الرغم من انقطاعهم للاستذكار

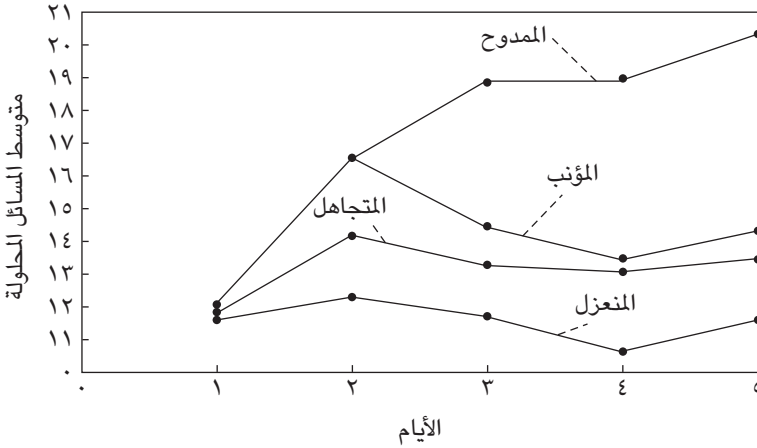
مع كثرة التكرار. والعلة في ذلك أنهم لا يشعرون باهتمام إلى ما يُحاولون حفظه، بل إن هذا النسيان دليل على انعدام الميل. وقد درج الآباء في مصر على أن يُوجِّهوا أبناءهم في الدراسة توجيهًا خاطئًا لا يقوم على ميل الطفل، فالأب يريد من ابنه أن يكون طيبًا، أو مهندسًا مثل ابن فلان، وقد تكون نزعة الطفل إلى الدراسات الأدبية وإلى معرفة اللغات أو إلى الشعر. ومن الاهتمام ما هو طبيعي، ومنه ما هو غير طبيعي، فإذا لم تجد في نفسك الاهتمام الطبيعي نحو شيء من الأشياء تريد أن تتعلمه، فعليك أن «تخلُق» هذا الاهتمام فتضمن بذلك سرعة الحفظ وبطء النسيان.

وللانفعالات أثرٌ في الحفظ وتثبيتته ونسيانه أو عدم نسيانه، فالانفعالات السارة التي تبعث البهجة وتُشيع الفرح تساعد على سرعة الحفظ، على حين أن الانفعالات المؤلمة التي تؤدي إلى الضيق والتبرُّم تمنع الحفظ. ويُلاحظ أن الانفعال إذا كان شديدًا ألقى ضوءًا على ما يُحفظ فلا ينسى، ولكن الخوف — إذا بلغ حد الرعب — أحدث ما يُشبه التوقُّف والشلل، فتُمحى الأشياء التي كانت مصدر الخوف من صفحة الذهن. ولا يساعد الضرب على التعلُّم على عكس ما يتصور كثير من الناس؛ لأن الضرب يؤلم حين وقوعه ويكون مصدر خوف للطفل قبل توقعه، وإذا كان الضرب شديدًا لا يتعلم الطفل شيئًا، وإذا تعلم لم يثبت مما يتعلمه شيء في مستقبل حياته، ويُعالج التعلُّم بالعقاب والثواب، وقد اتضح من التجارب النفسانية أن التعلم بطريق الثواب أشد ثباتًا من العقاب على الأخطاء. مهما يكن من شيء، فالعقاب لا بد منه لأنه شيءٌ طبيعي، كما يمسك الطفل النار فتحرق يده فيتعلَّم الحذر منها والابتعاد منها، ولا ينسى لسعتها.

ويتعلم الناس بالمدح والذم، أما الثناء فهو من أعظم البواعث على سرعة الحفظ، وأنت لا تنسى الشخص الذي يُثني عليك، وتتعلق بالأمر التي تجلب لك المدح. وقد أجرى بعض العلماء تجربة على ١٠٦ من التلميذات لبيان أثر المدح والذم في الحث على العمل العقلي، فأعطاهن عددًا من المسائل الحسابية ليرى كم تحل كل تلميذة في ربع ساعة، وراقبهن خلال خمسة أيام، في كل يوم مجموعة جديدة من المسائل. وقسَّم التلميذات أربع مجموعات؛ الأولى يثني على عملها سواء أحسن أم لم يحسن العمل، والثانية تُؤنَّب علانية أمام الفصل على ما ارتكبت كل واحدة من خطأ، على حين تُمتدح المجموعة الأولى ويثنى عليها الثناء الجميل. ومجموعة ثالثة تُركت وشأنها في تجاهل، لم تُؤنَّب أي تلميذة منها أو يُثنى عليها، ولكنهن كن يشهدن المدح والذم للأخريات. أما المجموعة الرابعة فوُضعت في فصل على حدتها، ولم يُمتدح عملها أو يُذم، ولم تشهد ما يفعله الأخريات، وكانت النتيجة

خط التعلُّم

بحسب مقدار العمل والتقدُّم فيه على هذا الترتيب: الأولى المدوَّحة، والثانية المؤنَّبة، والثالثة المتجاهلة، والرابعة المنعزلة، كما يتضح من الرسم البياني. وللاستعداد الفسيولوجي مدخلٌ عظيم في المعاونة على الحفظ أو إعاقته، ولذلك تختلف ساعات النهار وأوقات الليل اختلافًا كبيرًا باختلاف هذه الاستعدادات. غير أن نتائج المشاهدات دلت على أن الاختلاف فرديٌّ بحث لا يخضع لقانون عام.



أعرف قوِّماً يطيِّب لهم الحفظ عند الفجر، وآخرين في أول الليل وهكذا. ويختلف الأمر باختلاف الحالة الصحية أيضاً، وخصوصاً سوء الهضم الذي يُؤدِّي إلى سوء المزاج عموماً. وقد أجرى العلماء تجارب عدة على الحفظ اللغوي، كالألفاظ، والنثر، والشعر، وأثبتوا أن ما يُحفظ عن طريق القراءة الصامتة والعالية: أي عن طريق البصر والسمع أفضل من الصامت فقط أو المسموع فقط. ويجد بعض الأفراد عسراً في فهم الأشياء إذا قرءوا بصوت عالٍ، ويُفضِّلون القراءة الصامتة. وإذا كتب الإنسان ما يريد حفظه كان ذلك أدعى إلى الثبات.

وقراءة المحفوظات موقَّعة منغومة مما يساعد على الحفظ، ولذلك كان حفظ الشعر لأنه موزون أيسر من حفظ النثر، وحفظ القصائد التي تُنشَد وتُغَنَّى أشد يسراً. ولهذا السبب نظم القدماء العلوم في أراجيز مثل ألفية ابن مالك في النحو، وأرجوزة ابن سينا في الطب. وإذا تأملت طفلاً في الخامسة تجده يُردِّد ما يسمع في البيت أو المدرسة منغوماً.

وهناك طرقٌ تساعد على الاقتصاد في الزمن عند الحفظ، وهي الطريقة الكلية، والتكرار الموزَّع على فتراتٍ طويلة، والتسميع.

فالطريقة الكلية أن تقرأ القصيدة بأكملها لا بيتاً بيتاً أو مجموعاتٍ صغيرة من عدة أبيات؛ لأن المعنى ينساب في الكل ويربط جميع الأجزاء. ولذلك يُلاحظ أن الطالب الذي يحفظ مُتَّبِعاً الطريقة الجزئية يقف عند آخر كل جزء ويحتاج إلى من يُذكِّره بأول كلمة في الجزء التالي. ويحسُن بالطلبة الذين يستذكرون دروسهم أن يقرأوا الكتاب كله دفعةً واحدة، ثم يحفظون الفصول فصلاً فصلاً، لا صفحةً صفحةً.

إذا احتاج الأمر إلى تكرار ما تحفظ عدة مرات، فالأفضل أن توزع هذه المرات على فتراتٍ طويلة، فالأجدي أن تقرأ القصيدة التي تريد حفظها مرة كل يوم لمدة سبعة أيام، من أن تقرأها سبع مراتٍ في ليلةٍ واحدة. ومن الطلبة من ينقطع طُول العام عن الدرس والحفظ اعتماداً على الاستذكار قبل الامتحان مباشرة، فيحبس نفسه شهراً في البيت يُعيد فيه دروسه، فإذا جاء يوم الامتحان وجد أنه قد نسي، والعلة في ذلك أن الفترة التي قضاها في الحفظ قليلة.

وفضيلة التسميع على مجرّد القراءة ترجع إلى الاعتماد على الذاكرة، وإرادة الحفظ، هذا إلى معرفة مقدار ما حفظه من يُسمَّع فيحثه ذلك على زيادة الحفظ، إلى جانب أن مرة التسميع تُعد من مرات التكرار.

فإذا اتبع المرء الطرق القويمة في الحفظ، كان ذلك أدعى إلى الثبات وأبعد عن النسيان.

خط النسيان

رَأَيْتَ أَنَّ خَطَّ التَّعْلَمِ يَسِيرُ صَاعِدًا، وَسَوْفَ نُبَيِّنُ لَكَ أَنَّ خَطَّ النِّسْيَانِ عَلَى الْعَكْسِ يَتَجَهَّ هَابِطًا.

وهذا الخط البياني الذي نُحَدِّثُكَ عَنْهُ يَتَعَلَّقُ بِالنِّسْيَانِ الطَّبِيعِيِّ، أَمَّا النِّسْيَانُ الشَّاذُّ، أَوْ أَمْرَاضُ الذاكرة، فَهَذَا مَا نُرْجِي الْحَدِيثَ عَنْهُ إِلَى فِصْلِ آخَرَ.

وكَمَا أَنَّ التَّعْلَمَ أَنْوَاعٌ فَكَذَلِكَ النِّسْيَانُ، فَقَدْ فَرَّقْنَا بَيْنَ ذَاكِرَةِ الْعَادَةِ كَالسَّبَاحَةِ وَرُكُوبِ الدَّرَاجَةِ وَلَعِبِ الْبِلْيَارْدُو وَقِيَادَةِ السَّيَارَةِ وَالضَّرْبِ عَلَى الْآلَةِ الْكَاتِبَةِ، وَبَيْنَ ذَاكِرَةِ الْمَعْرِفَةِ أَوْ الذَّاكِرَةِ اللَّفْظِيَّةِ مِثْلَ حِفْظِ سُورٍ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَوْ قِصَائِدٍ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ جَدُولِ الضَّرْبِ فِي الْحِسَابِ وَغَيْرِ ذَلِكَ؛ وَلَيْسَ نِسْيَانُ السَّبَاحَةِ مِثْلَ نِسْيَانِ سُورَةٍ قُرْآنِيَّةٍ. وَلَوْ انْقَطَعَتْ عَنْ رُكُوبِ الدَّرَاجَةِ عَشْرِينَ عَامًا وَجَرَّبْتَ رُكُوبَهَا بَعْدَ ذَلِكَ لَوَجَدْتَ أَنَّكَ لَمْ تَنْسَ تِلْكَ الْخَبْرَةَ الَّتِي اكْتَسَبْتَهَا أَيَّامَ الصَّبَا وَالشَّبَابِ، وَلَكِنَّكَ إِذَا عُدْتَ عَشْرِينَ عَامًا إِلَى الْوَرَاءِ تَسْتَرْجِعُ قِصِيدَةً لَامِرِيِّ الْقَيْسِ كُنْتَ تَحْفَظُهَا أَيَّامَ الطَّلَبِ لَمْ يَجْرِ عَلَى لِسَانِكَ مِنْ أُبْيَاتِهَا إِلَّا الْبَيْتُ أَوْ الْبَيْتَانِ، أَوْ شِطْرَةٌ مِنْ بَيْتٍ.

هَلْ يَجْرِي النِّسْيَانُ طَبَقًا لِقَانُونٍ؟ وَهَلْ يَكُونُ النِّسْيَانُ كَامِلًا؟ وَمَا هِيَ عَوَامِلُ النِّسْيَانِ؟ وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي أَمْرِ النِّسْيَانِ، فَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ كُلَّ مَا يَدْخُلُ فِي خَبْرَةِ الْمَرْءِ وَيَتَأَثَّرُ بِهِ لَا يَزُولُ أَبَدًا وَلَا يُمَحَى، وَذَهَبَ بَعْضُهُمُ الْآخَرُ إِلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَحْتَفِظَ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَقَالَ بَعْضُهُمُ الثَّلَاثُ إِنَّ الْأُمُورَ الَّتِي سَبَقَ حِفْظُهَا جَيِّدًا وَثَبَّتَتْ مَعَ التَّكَرُّارِ، هِيَ الَّتِي لَا تُنْسَى وَيُمْكِنُ اسْتَرْجَاعُهَا فِي ظُرُوفٍ خَاصَّةٍ، مِثْلَ حَالَاتِ الْهَذْيَانِ، أَوْ التَّنْوِيمِ الْمَغْنَاطِيِّسِ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ شَخْصٍ تَكَلَّمَ بِلُغَةٍ أَعْجَنِيَّةٍ كَانَ قَدْ تَعَلَّمَهَا وَهُوَ فِي سِنِّ الثَّلَاثَةِ وَنَسِيَهَا تَمَامًا. وَيَقُولُ «تَيْن» فِي كِتَابِهِ «الذِّكَاءُ» مَا فَحَوَاهُ: لَا يُمْكِنُ مَعْرِفَةُ حُدُودِ هَذِهِ

الذكريات القديمة، ولا بد أن نُسلم بأن أي إحساسٍ مهما يكن عابراً تافهاً باهتاً، له القدرة على الظهور دون أن يُفقد منه شيء.

روى أبركرومبي في كتابه عن «القوة العقلية» القصة التالية قال: «أُصيبَت سيِّدةٌ بمرضٍ مزمن فنُقلت من لندن إلى الريف، وأحضروا إليها ذات يومٍ طفلتها ولم تكن تتكلم بعد، حيث مكثت معها فترةً قليلة ثم أعادوها إلى المدينة. وتُوفيت السيدة بعد أيام، وكبرت طفلتها دون أن تذكر شيئاً عن أمها. وأُتيحت لها فرصة زيارة الحجرة التي تُوفيت أمها فيها، فلما دخلت الغرفة ارتعشت مع أنها لا تعرفها، فلما سُئلت عن علة انفعالها أجابت: إني أحسُّ إحساساً واضحاً كأنني جئت من قبل إلى هذه الحجرة، وكان في هذا الركن امرأة راقدة، يبدو أنها كانت مريضةً جداً، وانعطفت نحوي وكانت تبكي.»

وشبيهٌ بذلك ما رواه كاربنتر في كتابه «الفسولوجيا العقلية» قال: ذهب رجلٌ له مزاج فنان مع بعض أصدقائه في رحلة على مقربة من قصر الكونت دي سوسكس الذي لا يذكر أنه زاره من قبل، فلما اقترب من الباب الكبير أحسَّ إحساساً شديداً بأنه سبقت له رؤيته، بل تذكر كذلك قوماً يركبون حميراً وآخرين يقفون إلى جوارها، فسأل أمه عن حقيقة الحال، فأخبرته أنه وهو طفل يبلغ ستة عشر شهراً ذهب إلى ذلك المكان على ظهر حمار، وأنه بقي بالباب مع الحمير والخدم على حين دخل الآخرون القصر يتناولون الطعام.

وإذا أضفنا إلى ذلك أن بعض علماء النفس الذين يدينون بمذهب اللاشعور وأثره في الحياة النفسية، يزعمون أن الذكريات التي يُخيل إلينا أنها قد انمحت في الظاهر ولا يمكن استرجاعها، لا تزال موجودة في اللاشعور تعمل وتؤثر وتُحرك صاحبها، وهؤلاء العلماء يفترضون أن كل ما يكسب المرء يظل باقياً في حالة من الكمون.

ومن ناحيةٍ أخرى يُضطر بعض العلماء إلى القول بوجود النسيان وضرورته، فهذا تين Taine الذي افترض من قبل الذكر الكامل يقول في مكان آخر: إننا إذا وازناً بين الإحساسات المختلفة والصور المتباينة والمعاني المتعددة، لوجدنا أن نزوعها إلى الذكر ليس بمنزلةٍ واحدة؛ إذ ينمحي كثيرٌ منها ولا تظهر إلى آخر الحياة. مثال ذلك أنني ذهبتُ أول أمسٍ لشراء بعض الحاجيات من السوق في باريس، ورأيتُ في الطريق مئاتٍ من الوجوه الجديدة لا أذكر أي وجهٍ منها.

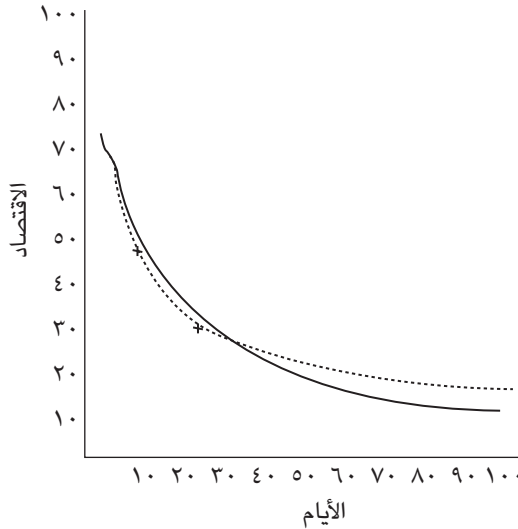
ويقول دلبيف Delbœuf في مقالة عن النوم والأحلام في المجلة الفلسفية: «هناك بعض الحق في الرأي القائل بأن الذاكرة لا تُصاب بالتعب فحسب بل تُمحي أيضاً، وإذا لم تطرد

خط النسيان

إحدى الذكريات صاحبته، فهي على الأقل تعوقها عن الظهور، بحيث يمكن القول بأن المخ يبلغ حدًا من التشبع عند الفرد.»

هذه الفكرة، نعني «التشبع»، هي التي عَوَّلَ عليها «ريبو» في بيان أهمية النسيان؛ إذ بفضلها يتيسر الاحتفاظ بما يكتسبه المرء فترةً طويلة من الزمن. ومن أجل ذلك رأى بعض العلماء أن النسيان وظيفة حيوية إيجابية، وأنه نشاطٌ ذهني نافع في حذف ما لا يحتاجه العقل وما لا أهمية له.

وإذا أبعدنا هذه النظريات كلها جانبًا، رأينا أن النسيان حقيقة لا ريب فيها. وقد اتجه بعض العلماء في بحثهم هذا الموضوع اتجاهًا تجريبيًا، وخرجوا بقانون النسيان الذي صاغوه صياغةً رياضية خاصة، ورسموه في خطٍّ بياني سمّوه خط النسيان. والفضل في هذه المباحث للعالم النفساني إينجهاموس، وتبعه في ذلك كثيرون. واعلم أن خط النسيان يتذبذب كما هي الحال في خط التعلم. والواقع أنه لا ينبغي الفصل بين الحفظ والنسيان؛ إذ كلاهما مكملٌ للآخر، أو قل إن التعلم صراع بين الحفظ الذي يتميز بالممارسة، والنسيان الذي يزيد بالترك. ولذلك قيل في الأمثال «آفة النسيان الترك.» وتتضح هذه الحقيقة من الرسم البياني الآتي:



النسيان

وتُجرى التجارب على النسيان، بأن يحفظ عددٌ من الطلبة شيئاً مُعيّناً مثل بعض الألفاظ، ثم يُختبرون بعد ذلك، البعض بعد ساعة، والبعض الآخر بعد يوم، والبعض الثالث بعد يومين وهكذا. وقد دلّت التجارب على أن النسيان يكون سريعاً جدّاً بعد الحفظ مباشرة. وأوّل من أجرى هذه التجارب هو هرمان إينجهاموس الذي جرّب على نفسه أن يحفظ مقاطعَ لا معنى لها، ثم اختبر نفسه في اليوم التالي، فوجد أنه لم يسترجع إلا ثلثها تقريباً، واستمر النسيان بعد ذلك ولكن ببطء.

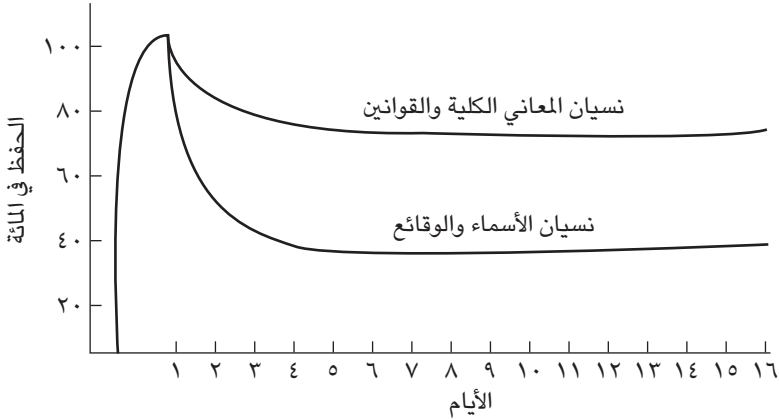
على أن قيمة تجارب إينجهاموس ترجع لإثبات هذه الحقيقة، وهي أن ما سبق اكتسابه ونُسي، يمكن أن يحيا باكتساب جديد مع الاقتصاد في الزمن، وهذا دليل على بقاء أثر ما حُفِظ. مثال ذلك أنه إذا لزم تكرار مقاطع لا معنى لها ٢٠ مرة لحفظها، فإنه يكفي إذا نسيته أن تُكرّر ٥ مرات؛ أي إن نسبة الاقتصاد هي ١٥ إلى ٢٠ أي ٧٥٪، وتحتاج بعد ذلك إلى اقتصاد ١٠ مرات أي ٥٠٪ وهكذا.

ويتضح بمقتضى هذه التجارب أن النسيان أمرٌ طبيعي وتلقائي ومنتظم، ولو أن بعض العلماء من أصحاب التحليل النفساني، وعلى رأسهم فرويد، يرون غير هذا الرأي، فيذهبون إلى أن النسيان راجع إلى «الكبت» وإلى الرغبة اللاشعورية في هذا النسيان. وقد حَسَبَ كثير من العلماء في تجاربهم على الاقتصاد في الزمن واتجاه خط النسيان وطلعوا بنتائج متقاربة. وهذه إحدى التجارب:

الفترة بالساعة	نسبة الاقتصاد
٢٤ ساعة (١ يوم)	٦٨,٩٪
٤٨ ساعة (يومان)	٦٠,٩٪
١٤٤ ساعة (٦ أيام)	٤٩,٣٪
٣٤٦ ساعة (١٤ يومًا)	٤١,٠٪
٥٠٤ ساعة (٢١ يومًا)	٣٧,٨٪

خط النسيان

وهذا هو الخط البياني للنسيان:



ويُصاغ هذا القانون في معادلةٍ جبرية، فإذا رمزنا للزمن بحرف م، وبالمادة التي تحفظ بحرف د، وبمقدار الاقتصاد بحرف ق كانت المعادلة كما يأتي:

$$ق = \frac{د}{لوغاريتم م}$$

هذا القانون عام، ولكننا إذا نظرنا إلى الأفراد نجد أنهم يختلفون فيما بينهم اختلافاً كبيراً، وكذلك إذا نظرنا إلى طبيعة الأشياء التي حُفِظَتْ ثم تُنسى فيما بعدُ.

فالأعمال الآلية أعظم ثباتاً كما توضح التجارب الآتية: تعلّم شخصُ الآلة الكاتبة حتى بلغ من المهارة أن يكتب ١١٠٠ كلمة في الساعة بعد تدريب استمر ٤٨ يوماً، ثم انقطع عن الكتابة سنتين، فاحتاج إلى عشرة أيام ليلبغ المستوى السابق؛ أي باقتصاد قدره ٧٩٪.

وروى سويفت Swift من علماء النفس أنه قضى ٤٢ يوماً في تعلّم قذف الكرة، واحتاج إلى ١١ يوماً بعد ست سنواتٍ ليسترجع ما سبق أن بلغه؛ أي باقتصادٍ قدره ٧٤٪.

أما الذاكرة اللفظية فلها شأنٌ آخر؛ لأن الألفاظ منها حروف، ومنها مقاطعٌ لا معنى لها، ومنها أسماء أعلام، ومنها أسماء أشياء، ومنها أسماء كلية عامة، ومنها صفات، ومنها ظروف وحروف جر تصل الكلام بعضه ببعضه الآخر، ومنها أفعال، وهذه كلها تتبع قانوناً في نسيانها وضعه «ريبو» في كتابه «أمراض الذاكرة»، أو أنه وضع قانونين؛ الأول

خاص بتعلّم اللغة إطلاقاً لغة الكلام العقلي، ولغة الانفعالات، ولغة الإشارة؛ والثاني خاص بلغة الكلام العقلي.

وطبقاً للقانون الأول تُنسى اللغة العقلية أولاً، ثم اللغة الانفعالية كعبارات التعجّب ثانياً، ثم لغة الإشارة ثالثاً.

أما فيما يختص باللغة العقلية فإنها تخضع في نسيانها لهذا القانون، وهو الاتجاه من الخاص إلى العام، كما تعلّم الطفل فهو يبدأ بالخاص وينتهي بالعام، ويسير النسيان بالعكس، فيبدأ بأسماء الأشخاص أو الأعلام، ثم بأسماء المحسوسات، ثم بالصفات ثم بالأفعال. وتستطيع أن تُفسّر بهذا القانون العلة في نسيان أسماء الأصدقاء مع الاحتفاظ بصورهم، فكثيراً ما تلتقي بشخصٍ تذكره جيداً وتذكر عمله، ولكنك تنسى اسمه. أما فرويد فله في نسيان الأسماء تعليلٌ آخر.

ويعتمد برجسون على هذا القانون في البرهنة على أن الذاكرة لا تنطبع في المخ؛ لأن الألفاظ إذا كانت قد حُفرت في المخ فلماذا تختفي أسماء الأعلام دون الأفعال. أما الأفعال فإنها تدل على العمل، وأن العمل يمكن محاكاته فيُكتسب عن هذا الطريق، وبذلك تدخل الأفعال في الأعمال الآلية، وأن الصفات تكون عملية عن طريق الأفعال التي تحتويها، أما الأسماء فتحتاج إلى وساطة الصفات ثم الأفعال، فكلما ابتعدنا عن الأفعال إلى الأسماء ابتعدنا عن الأعمال التي يمكن تقليدها بواسطة الجسم، فهذه هي خلاصة تفسير برجسون لنسيان الأسماء والأفعال.

جملة القول إذا كانت الحياة العقلية تشمل المحسوسات والصور الذهنية والمجردات التي تدل على المحسوسات كالرموز والأرقام والأسماء الشخصية والمعاني الكلية والقوانين العامة، مثل قانون العرض والطلب في الاقتصاد وما إلى ذلك، فإنها آخر ما تُنسى، ويوضح هذا الخط البياني نسبة النسيان في الأسماء والوقائع وفي المعاني الكلية والقوانين العامة. ومن جملة القوانين التي أوضحتها تجارب علم النفس الخاصة بالتذكر والنسيان، أن ما يُحفظ لأول مرة يغيب في هوةٍ من النسيان تمتد من يوم إلى ثلاثة أيام باختلاف الأفراد، ثم يُذكر بعد ذلك. لنفرض أنك حفظت قصيدةً جديدةً من الشعر لأول مرة، ثم أردت استرجاعها بعد يومين، فإنك لا تجد إلى تذكرها سبيلاً، وفي اليوم الثالث تذكرها. وتُسمّى هذه المدة هوة أو فترة النسيان. ولذلك كان من الخطأ الشديد أن يستذكر الطالب درسه الذي سوف يُمتحَن فيه ليلة الامتحان. ويبدو أن العقل يعمل لا شعورياً، فيربط ما تحصّله بجملة ما يحتويه الذهن ويحتاج إلى هذه الفترة حتى يَستقرّ ما يكتسبه.

وقد أجمع المُحدِّثون على أن السبب الأول في النسيان هو اختلاطُ الحفظ، أو تدخُّل شيءٍ جديد فيما تحفظه أو تدركه، فيُعْطَل أحدهما الآخر، فلو أن تاجرًا تقدَّم إليه شخصٌ اسمه حسن عبد المجيد، وفي الوقت نفسه آخرُ اسمه حسين كامل، وثالثُ اسمه محمود عبد الواحد، ثم أراد بعد شهر أن يذكر اسم الأول لنسيه، أو على الأقل إذا كانت ذاكرته جيدة لقال حسين عبد المجيد بدلًا من حسن، أو حسين عبد الواحد، فجعل يخلط بينهم. والأغلب أن التدخُّل يؤدي إلى التوقُّف والتعطيل. ويُلَاحَظ أن الطالب في الفصل المدرسي إذا جلس يتحدث مع زميله لم يستطع أن يتذكَّر درس الأستاذ، ولذلك ينبغي الهدوء التام ساعة إلقاء الدرس. وإذا استذكر الطالب دروسه في المنزل بين ضجيج أهل الدار أو أهل الحي، وجد صعوبةً في التذكر فيما بعد، وكيف يتسنى للطالب الحفظُ على حين يعلو صوتُ المذياع طول الليل وخاصة في الأحياء الوطنية، وهي أحياءٌ شديدة الازدحام بالسكان، ولا يخلو الأمر من وفاة أو زفاف، فتقام ليالي المأتم أو الزفاف في ضجَّة شديدة، حتى لقد كثرت الشكوى وأراد بعض أولي الأمر منع استعمال المذياع بسلطة القانون. وأفضل من ذلك أن يقطن المرء في الضواحي حيث يضمن الهدوء، فينصرف إلى عمله العقلي دون أن يعوقه عائق.

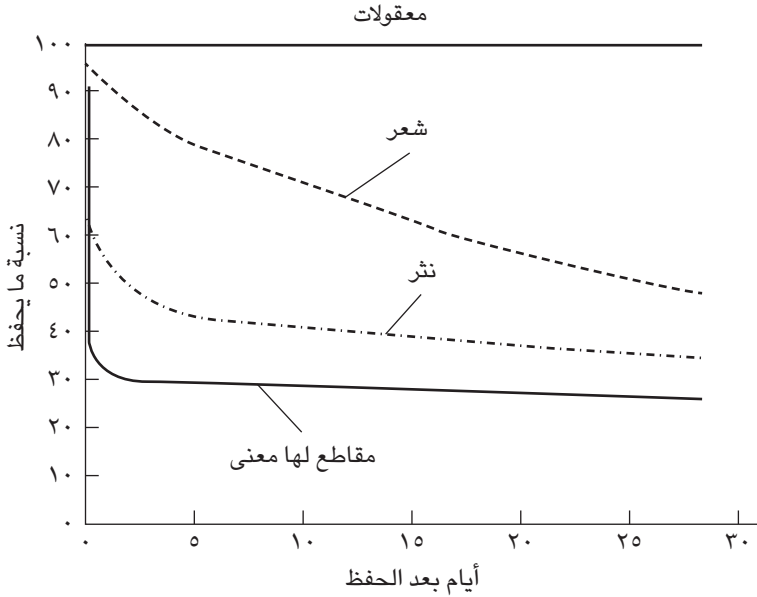
وليس من الضروري أن يكون العائق ساعة الحفظ، بل قد يكون بعد الحفظ، وقد يكون مستمرًّا، في صورة الهموم التي تنتاب المرء. وانظر إلى شخصٍ قد توفِّي ابنه، أو هو طريح الفراش لا يجد له علاجًا، أو إلى تاجرٍ قد تراكمَت عليه الديون، تجده شارد الذهن ينسى كل شيء حتى الأعمال الآلية، فإذا به يغفل عن طعامه؛ فالهموم من المعوقات التي تتدخَّل في المحفوظات الذهنية فتُعْطِّلها.

ويُسمَّى هذا التدخُّل في الحفظ بالاصطلاح العلمي «المانع المعاكس» Retroactive inhibition.

فإذا شاء أحدنا أن يذكر شيئًا ولا ينساه، فعليه أن يحفظه وحده، وأن ينقطع له، ولا يسمح لشيءٍ آخر أن يعوق ما يحفظه.

أما العامل الثاني في الذكر والنسيان، فهو الراحة الجسمية أو التعب والإجهاد. وقد أثبتت التجارب أن التذكُّر يكون أفضل بعد «النوم»، ولذلك نصحوا بأن ينام المرء بعد الحفظ حتى يثبت ما يحفظه. ويلجأ بعض الطلبة إلى السهر طول ليلة الامتحان، فإذا به لا يستطيع أن يتذكَّر ما حفظه، مع أنه لو نام نومًا كافيًا ما نسي. ويبدو أن المعلومات تستقر في الذهن لا شعوريًّا، وأن العقل يعمل في اللاشعور، بدليل أن الذي يُفكَّر في

النسيان



مسألة هندسية مثلاً يجد حلّها فجأة دون أن يُفكّر فيها بوعي. وفي حالات الجَوْلان النومي Somnambulisme ينهض الشخص من فراشه ويجلس إلى مكتبه يعمل ويؤلّف ثم يعود إلى فراشه ثانياً، حتى إذا استيقظ لم يذكرّ مما فعله شيئاً. وليس هذا غريباً لأنّ بعض الناس يتكلمون وهم نيام، فإذا سُئلوا بعد اليقظة أنكروا أنهم كانوا يتكلمون. واعتماداً على هذه الحقيقة — نعني وجود المعلومات في اللاشعور وصعوبة تذكُّرها في حالة اليقظة — يلجأ علماء النفس إلى التنويم المغناطيسي إذا أرادوا معرفة بعض الحوادث التي نَسِيَهَا المريض. هذا ويُعلّل بعض العلماء تذكُّر المرء الماضي في حالة التنويم المغناطيسي، بأنه يكون منقطعاً انقطاعاً تاماً إلى هذا التذكُّر، لا يشغله شيء آخر، فضلاً عن ارتياحه. وليس من الضروري أن يلجأ العالم النفساني إلى التنويم المغناطيسي في استحضار الذكريات الماضية؛ إذ يكفي أن يُجلس المريض جلسة مريحة في مكان هادئ وأن يدعه يتكلم بطريقة «التداعي الحر». وكثيراً ما يتوقف المريض؛ لأنّ في قرارة نفسه أموراً لا يريد إظهارها، أو يرغب في كبتها ونسيانها. وبذلك نرجع إلى القاعدة الأولى في النسيان، وهي وجود الموانع الحائلة دون التذكُّر.

وقد فطن القدماء بالتجربة الشخصية إلى ما فطن إليه العلماء المحدثون بالتجارب العلمية، فهذا أبو تمام يُوصي البحري في صدر وصيته بالقاعدتين اللتين ذكرناهما وهما الابتعاد عن الشواغل والنوم للراحة. وهذه هي الوصية بألفاظها كما رواها البحري قال: «كنتُ في حادثتي أروم الشعر، وكنتُ أرجع فيه إلى طبعي، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضائه حتى قصدتُ أبا تمام، وانقطعتُ فيه إليه، واتكلتُ في تعريفه عليه، فكان أول ما قال لي: يا أبا عبادة، تخيّر الأوقات وأنت قليل الهموم صفو من الغموم. وعلم أن العادة جرت في الأوقات أن يقصد الإنسان لتأليف شيء أو حفظه وقتَ السحر؛ وذلك أن النفس تكون قد أخذتَ حظها من الراحة وقسطها من النوم ...»

ووصية أبي تمام وصية خبيرٍ بالحفظ والرواية عليم بأسباب النسيان، وكان فيما قال جيد الذاكرة يحفظ الشعر إذا سمعه مرةً واحدة، فقد اتصل البحري بأبي تمام وسعى إليه في حمص فأنشده قصيدةً حفظها أبو تمام لأول مرة، ادّعاها ليُكدّر على البحري خاطره أو ليعاقبه على تقحُّمه عليه مواطن الإنشاد، ثم عاد فأفهمه أنه يُداعبه.

ويتضح من ذلك أن حفظ الشعر أيسر من حفظ النثر، وليس يعلو عليه إلا حفظ المعقولات التي يدركها الإنسان ببصيرة العقل لا عن محاولة وتعثُّر أو تقليد ومحاكاة. وهذا هو خط النسيان الذي رسمه جلفورد Guilford أحد علماء النفس يُبين فيه نسبة نسيان المعقولات والشعر والنثر والمقاطع التي لا معنى لها.

أمراض التعرف

كنتُ أركبُ ترام المترو عائداً إلى مصر الجديدة ذات يوم، وجلس في المقعد أمامي شخصٌ لم أتمالك من تحيته؛ لأنه فضلاً عن زمالته في المدرسة الثانوية فهو صديقي، وهو يعمل محامياً مشهوراً. ولم يردُّ هذا الشخصُ التحيةَ بأحسنَ منها أو بمثلها، ولكنه ردّها ردّاً متجاهلٍ كأنه لا يعرفني، فعجبتُ وتأمّلتُهُ طويلاً، إنه هو هو هيئةٌ وقواماً وشارباً، فقلتُ في نفسي لعله شخصٌ قريب الشبه منه، ولكني كلما نظرتُ إليه لم أجد بداً من الجزم بأنه صديقي الذي أعرفه، وأنكرتُ إنكاره معرفتي، وأردتُ التأكد من هذه المسألة فقلتُ له: ألسَتَ فلاناً؟ فأجاب كلا، فقلتُ له: ألسَتَ محامياً؟ فأجاب إنه موظف بإحدى الوزارات.

وكثيراً ما يحدثُ من الخطأ في التعرفِ حوادثٌ غير محمودة، فهناك أشخاصٌ ترتفع بينهم الكُلفة إلى حدِّ التبسُّط، فإذا التقى أحدهم بصاحبه احتضّنه وقبله، أو إلى حدِّ الهذر فيضربه أو يشتمه مثلاً، فانظر حرج الموظف حين يُفاجأ شخصٌ بمن يلكمه أو يزغده. وروى لي صديقٌ هذه النادرة العجيبة قال: كنتُ أسهر مع بعض أصدقائي في مقهى حتى منتصف الليل، ولأمرٍ ما أخرجتُ مفتاح منزلي فأخذه مني أحدهم ونسيْتُ أن أسترده منه، ثم انصرفنا، وتحسّستُ المفتاح فلم أجده، فعرفتُ أنه مع صاحبي الذي انصرف وكان أعزب زرتُ منزله مرةً واحدة قبل ذلك بعام، فرجعتُ مع صاحبي ناحية ذلك المنزل، ولكننا دخلنا المنزل المجاور الذي كان يُشبهه، وصعدنا الدور الثالث ونقرنا على الباب، فخرجتُ لنا خادمةٌ صغيرة، فقلنا لها: «هل سيدك محمد أفندي موجود؟» فقالت: «نعم، تفضّلوا.» فدخلنا إلى صالةٍ صغيرة فيها مائدةٌ عليها طعام، ولم تكن بيننا وبين صديقنا كُلفة، ورأينا على المائدة طبقاً فأكلنا من الطعام الذي فيه، ولما غاب صديقنا عن الحضور،

صحنا به وهممنا أن ندخل عليه حجرة النوم، وإذا بشخص آخر يخرج وزوجته تُنادي به من الداخل أن يرى رأيهُ في هؤلاء الأصدقاء الذين يطرقون بابهُ بعد منتصف الليل. وأصرَّ الرجل أن يصحبنا إلى قسم البوليس للتهجُّم عليه.

وقد تدخل بيتاً فتحس كأنك تعرفُ هذا البيتَ وتعرفُ حجراته وتعرفُ أثاثه، وهذا هو «التذكُّر العكسي» Paramnesia، وينشأ في الغالب من «التشابه» بين المكان الذي تعرفه وبين المكان الذي تراه، وينشأ عن ذلك الشعور بـ «الألفة».

والتعرفُ مُكملٌ للتذكُّر ولا يَعْده العلماء مرحلةً أساسيةً منه، إذا كانت مراحل الذاكرة خمساً؛ الحفظ والوعي والاسترجاع ثم التعرف والتحديد. ولنضرب مثلاً يُبين هذه المراحل طالب في المدارس الابتدائية يُعلِّمه المدرس أن دمشق عاصمة سوريا، فيحفظ الطالب هذه الحقيقة، وتستقر في ذهنه وتظل باقيةً في صفحة عقله دون أن ينساها، وهذا هو الوعي. وعند الامتحان يُجيب عن السؤال الآتي: ما عاصمة سوريا؟ إنها دمشق. وهذا هو الاسترجاع. أما إذا جاء السؤال على النحو الآتي: هل عاصمة سوريا بغداد أو دمشق أو بيروت، فأجاب إنها دمشق، فهذا تعرفُ؛ لأنه لا يسترجع اللفظ، بل يتعرفُ عليه. أما التحديد فهو وضعُ ما تتذكُّره في المكان أو الزمان، والتحديد مُكملٌ أيضاً للذاكرة. وقد تُعقد بعض الامتحانات المدرسية على أساس التعرف لا الاسترجاع، كما بيَّنا في السؤال السابق؛ تسهياً للطلبة.

وأساس التعرف الحفظ السابق؛ لأنك تستعرض ذكرياتك وتطبِّقها على هذا الشيء الذي تراه أو تسمعه، فإذا حدث خطأ في التعرف كالأمثلة التي ضربناها، فعلةً ذلك ترجع إلى أمورٍ كثيرة، إما من الحفظ، وإما من عواملٍ أخرى سوف نذكرها، وقبل بيان هذه العوامل يجدر تمييز أنواع التعرف، وهي ترتد إلى نوعين أساسيين؛ تعرفُ الألفة، وتعرفُ الحكم، فالأول تعرفُ وجداني، والثاني عقلي.

ومن المشاهد أن الإنسان، والحيوان كذلك، يُحسُّ بإزاء الأشياء التي تحيطه في البيئة التي يوجد فيها بأحد شعورين؛ إما ائتلاف وإما نفور وغرابة. وكثيراً ما يكون هذا الشعور غامضاً لا يستبين فيه المرء أي ذكرى قديمة واضحة، ويحدث ذلك عندما نسير في الشوارع التي أَلِفناها والأماكن التي تعودنا الاختلاف إليها. ومعظم الحيوانات تجد لذة في تمضية الوقت في الأماكن المألوفة لها، ومرجع ذلك إلى شعورها بـ «الأمن» وابتعادها عن الخطر الذي تريد أن تتجنبه. والحق أن الخوف من أهم العوامل في النسيان، كما أنه من العوامل التي

تبعث على الابتعاد عن الأشياء وتجنّبها، ونسيانها أحد مظاهر الابتعاد عنها. وإذا لاحظنا الطفل الصغير الذي يبلغ من العمر ثلاثة أشهر أو أربعة نجد أنه يتميز بهذا الشعور، شعور الألفة الذي يجلب له الأمن والاطمئنان، ولذلك يُقبل على أمه أو أبيه أو خادمتها، ويُشيع بوجهه عن الغرباء ويفزع منهم. وليس ذلك تعرّفًا عن حكم عقلي، بل عن الصلة الآلية التي تشبه الأفعال الشرطية. ومن الألعاب التي يُسر لها الأطفال كثيرًا لعبة «الاختفاء» حين تُخبئ منه لعبته أو تُخفي عنه الشخص الذي يحبه، فيبحث عنه ويُسر عند عودته، وتنبسط له أسارير وجهه.

ومن الأمور التي تُعد في باب العجائب تعرّف الكلاب على أصحابها بحاسة الشم. وتستطيع الكلاب البوليسية أن تتعرّف على المجرمين إذا شمّت آثار الجريمة، وهناك أبحاث قانونية كثيرة في هذا الموضوع، ولكن جمهرة المحاكم لا تأخذ بهذا الدليل، ولا تجعله قاطعًا؛ إذ قد يخطئ الكلب في تعرّفه. وإنما يستطيع الكلب أن يتعرّف؛ لأنه يحتفظ في ذهنه بالصورة الشمسية ويُطبّقها على الشخص الذي يجد فيه هذه الرائحة نفسها، ولكننا لا نملك القول بأن الكلب يُميّز الماضي ويعرفه ويُطبّق الموجود في الحاضر على المحفوظ في الماضي؛ لأن هذه العملية هي تعرّف الحكم الذي يختص الإنسان به.

فالشعور بالألفة شعورٌ عام لا يغوص فيه صاحبه مع الماضي، وهو يوازي الذاكرة الآلية، أو ذاكرة العادة، ويتصل أغلب الأمر بالأشياء والأماكن لا بالمعاني والألفاظ. وقد قيل إن التعرّف على الأشياء هو التعامل وإياها، وهذه نظرية السلوكيين في علم النفس، فإذا نظرت إلى فنجان عرفت أنه صالح أن يُشرب فيه، وإلى قلم أن يُكتب به، وهكذا.

أما تعرّف الحكم فيحتاج إلى نظرٍ في الماضي، على حين يستعرض تعرّف الألفة الماضي، فنحن في حياتنا اليومية نتعامل مع أشياء كثيرة يكفي أن ننظر إليها حتى نُقبل عليها أو نُدبر عنها دون الرجوع إلى الصور الذهنية الماضية عنها. رُوي عن مرضى يعرفون كيف يصفون الأشياء إذا ذُكرت أسماءها ولا يتعرّفون عليها إذا شاهدوها. ورُوي عن شخص أصبح يجهل الاتجاه في شوارع بلده التي نشأ فيها، ومع ذلك فهو يعرف أن هذه الطرق شوارع وأن الأبنية الموجودة على جوانبها بيوتٌ للسكنى، وأصبح لا يعرف زوجته وأولاده، ولكنه مع ذلك يعرف أن هذه امرأة وهؤلاء أطفال. من أجل ذلك أنكر برجسون — بعد رواية هذه الأمثلة — أنها تدل على «عمى نفسياني» أو على فقدان الذاكرة، ولكنها دليلٌ فقط على نوعٍ من أنواع أمراض التعرّف يرجع إلى اختلال العادة الآلية؛ ذلك أن الإنسان

يتعرّف على المدينة بأن يسير في طرقاتها مرةً بعد أخرى، ثم يصبح سيره في شوارعها آلياً، ومن هنا ينشأ الشعور بالألفة.

وانظر إلى الأحوال التي نُضطرّ فيها إلى الحكم عند التعرّف؛ أي استحضار الماضي وتطبيقه على الحاضر. عندما تُضبط مسروقات أو يعثر رجل البوليس على طفل ضل الطريق، ويذهب أصحاب المسروقات أو أهل الطفل للتعرّف على هذه المسروقات أو هذا الطفل، يرجع المرء إلى الذاكرة، وبخاصة لأن رجال البوليس لا يكتفون بمجرد التعرّف، بل يطالبون بذكر علاماتٍ مميزة.

كانت إحدى الفتيات تلعب في حديقة عامة مع إخوتها فوقعت منها ساعة يد، وعثر عليها أحد الصبية ممن كانوا يلعبون في الحديقة، ولم يكن يعرف صاحبها، ولكنه ظن أنها تكون لإحدى هذه الفتيات، فذهب إلى منزلهن يعرض الساعة، ولم تكن صاحبها موجودة في ذلك الوقت بل أختها الصغيرة التي تبلغ العاشرة من عمرها، فلما سألها عن الساعة وعرضها عليها قالت إنها ليست ساعة أختها لأن ساعتها مُربّعة وهذه مستديرة، لولا أن سمعت أمهن الحديث فتدخلت في الأمر وعرفت الساعة. أما السبب الذي من أجله أخطأت الأخت الصغيرة في التعرف على الساعة، فهو أنها كانت تطمح أن يكون لها واحدةً مثل أختها، فهي تنفس عليها وتحسدها وتودّ ألا يكون لها ساعة حتى تُحرم منها كما أنها محرومة كذلك.

فهذا نسيانٌ يرجع إلى تخيّل صورة تُخالف الصورة القديمة.

ويُعِلُّ برجسون أمراض التعرّف بأمرين؛ الأول نسيان الصور الذهنية الماضية، والثاني انحلال الرابطة التي تربط بين تلك الصور وبين غيرها. والواقع أن الذكريات الماضية لا تكون مفردةً منعزلة بل يرتبط بعضها ببعضها الآخر، إلى حد أن الفكرة التي تتكوّن عندنا عن شيء من الأشياء تتم شيئاً فشيئاً بعد إضافة صُور عدة عن الشيء الواحد، فأنت تعرف زيداً من الناس لأنك رأيته في أوضاع مختلفة وفي هيئات عدة، فهو مرةً جالس وأخرى قائم، وتارةً لابس وتارةً غير لابس، وفي حين باسم وفي حين آخر عابس، ومع اختلاف هذه الهيئات كلها تعرفه وتُميّزه دون غيره، فأنت حين تتذكّره، أو حين تتعرّف عليه، لا تستحضر في ذهنك صورةً ماضية عنه بالذات. وكذلك الحال حين تنظر إلى شجرة فتقول هذه شجرة، وحين تنظر إلى قطة فتقول هذه قطة وليست كلباً. وليس معنى ذلك أنك تستحضر في ذهنك صورة قطة معينة بالذات أو صورة شجرة بالذات.

والذي يعين الإنسان على إدراك هذه المعاني الكلية، أنه يخلع عليها ألفاظاً تتركّز فيها، على خلاف الحيوان غير الناطق.

واللفظة وعاء أو لباس للمعنى، ولها شخصية مستمدة من شخصية الأشياء التي تدل عليها، ولكن الألفاظ أصوات ليست مادية كهذه الشجرة أو هذه القطعة أو هذا الكلب. ومع ذلك فقد ظن قوم أن الألفاظ المنطوقة مادية، وأنها تحضر في صفحة ذهن كما تُسجّل الأصوات على صفحة الأسطوانة ثم تُسمع بعد ذلك في الجراموفون. وهذا تشبيه قديم ساد في أواخر القرن التاسع عشر، ولكن برجسون وغيره اعترضوا عليه اعتراضات كثيرة، فقالوا: إن كانت الألفاظ مُسجّلة على هذا النحو، فلماذا تسقط لفظة واحدة من بين العبارة المحفوظة؟ ولماذا تنسى لحظة ثم تظهر لحظة أخرى؟

وكما يتعرّف الإنسان على الأشياء المحسوسة وعلى الأماكن التي تحيطه في البيئة التي يُوجد فيها، كذلك يتعرّف على الألفاظ والمعاني التي تُعرض عليه. كنتُ في مجلس وجاء ذكر هذه الآية على سبيل الاستشهاد ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ (الأحزاب: ٤) فقلتُ هذا حديثٌ شريف، فقال صاحبي بل إنه آية قرآنية، وأصرّ على رأيه، وأصررتُ على رأيي، فلما عدتُ إلى منزلي راجعتُ المسألة فاتضح لي فسادُ تعرّفي، ووجدتُ أنه آية وليس حديثاً. وأخذتُ أُحلّل نفسي كيف وقعتُ في هذا النسيان، فرأيتُ أنه يرجع إلى تخليط في الحكم بين خصائص الأسلوب القرآني وأسلوب الحديث النبوي. ومعظم أخطاء التعرّف ناشئة من الخطأ في الحكم مع ضعف الحفظ.

ولا ريب في أن سوء الاكتساب وضعف الحفظ أول أسباب الخطأ في التعرّف. مثال ذلك أنني أذهب بين حين وآخر إلى الريف، وألتفتُ إلى هذه البيئة الجديدة فأرى فيها مجاري للمياه يُسمّون بعضها ترعاً وبعضها الآخر مصارف، فالترعة مجرى من الماء العذب الذي يستمد أصله من النيل وهي التي تزوي الأرض، والمصرف مجرى من الماء يتسرّب إليه الماء من الأرض بعد ريّها، وكلاهما مجرى من الماء. وقد يكون أحدهما مجاوراً للآخر، كل ما في الأمر أن المصرف أعمق من الترعة وأن جانب المصرف يبدو عليه بياضٌ من آثار الملح. ومع ذلك فإنني لا أزال أخطئ بينهما، على حين أن الفلاح يتعرّف عليهما بكل بساطة، فهذا الخطأ ناشئ عن ضعف العلم بحقيقة الترعة والمصرف. ويُسبِّه موقفي من شئون الريف على وجه العموم موقف خادمة من الريف طُلب منها أن تُحضر الكتاب الموضوع على المكتب فأحضرتُ بدلاً منه كراسة. الحق ليس التمييز بين الترعة والمصرف أمراً عسيراً يصعب اكتسابه، ولكن المسألة ترجع إلى الميل والاهتمام أو إلى ما يذكره برجسون وهو «الانتباه»، وعنده أن الاسترجاع، وكذلك التعرّف، دورة تبدأ من الانتباه ثم الإدراك ثم التصوّر ثم الحفظ ثم الاسترجاع ثم التعرّف.

وعقد ريبو في كتابه «أمراض الذاكرة»^١ فصلاً عن التعرف والتحديد. وهو يتوسّع في معنى التعرف ويجعله يشمل التحديد في الزمان؛ أي إن هذه الحادثة مثلاً وقعت لنا في وقت معين وفي مكان معين. والسبيل إلى ذلك أن العقل يتخذ من بعض الحوادث «نقطة ارتكاز»، يُحدّد الحوادث الأخرى بالنسبة لها. وهذا ما يفعله أولئك الذين يحفظون التاريخ، بل التاريخ نفسه يعتمد على نقطة ارتكاز، مثل التاريخ الميلادي يبدأ من ميلاد المسيح، والهجري من هجرة الرسول. ويتخذ العامة من بعض الحوادث المشهورة بدءاً للتاريخ، مثل حرب عرابي، أو الثورة المصرية وهكذا. وهذا ما يفعله كل فرد منا بالنسبة لحوادثه الخاصة، فهو يتخذ من وفاة أبيه أو زواجه أو بدء عمله نقط ارتكاز تكون أشبه بالدعائم التي تقوم القنطرة عليها، وترتبط بها سائر الحوادث الأخرى. هذه النقطة هي التي تُسهّل عملية التحديد في الزمان. ومن الواضح أن هذه الحوادث التي نُطلق عليها اسم نقط الارتكاز تكون أبعد عن النسيان؛ لأنها تصبح آلية لكثرة التكرار والاستعمال. أما الحوادث الأخرى المرتبطة بها، فإنها تكون عرضة للنسيان وخصوصاً كلما ضعفت الصلة بها.

وهنا يُوحّد ريبو بين التحديد والتعرف، ويذهب إلى أن التعرف ناشئ عن غموض التحديد، فأنّت تقول إذا رأيت وجه شخص: «يبدو أنني رأيت هذا الوجه من قبل». ثم تبحث عن الزمان الذي رأيته فيه، والمكان الذي التقيت به، فتعجز عن ذلك. فصعوبة التعرف راجعة إلى العجز في التحديد.

وذكر ريبو من أسباب هذا العجز المرض والشيخوخة، وضرب مثلاً بمشاهير من الرجال لم يتعرفوا على أعمالهم الشخصية؛ فهذا لينيه Linné كان يلهو في أواخر حياته بقراءة تأليفه، حتى إذا استغرق في قراءتها، نسي أنه مؤلفها وصاح: «ما أبدع هذا! ليتني كنت الكاتب». ولما طعن والتر سكوت في السن أصبح عرضة لهذا الضرب من النسيان، فقد أنشدوا له ذات مرة إحدى قصائده فأعجبته وسأل عن ناظمها، وكانت إحدى مقطوعات قصيدته «القرصان». وتروي سكرتيرته بلانتين Ballantyne التي لزمته وكتبت سيرة حياته، كيف أملى عليها قصة إيفانهو Ivanhoe وهو مريض طريح الفراش، ثم طبع الكتاب قبل أن يبرح سكوت السرير، ولم يذكر من القصة شيئاً، اللهم إلا فكرتها التي نبّت في ذهنه قبل المرض.

^١ انظر كتابه، ص ٣٢، وما بعدها.

ويُروى أن الشاعر روجرز عندما بلغ التسعين من العمر، كان يتنزّه في عربة مع سيدة سألته عن سيدة أخرى لم يستطع أن يتذكّرها، فأوقفَ العربة ونادى على الخادم وقال له: هل أعرف السيدة فلانة؟ فأجاب الخادم بالإيجاب. ومَرَّتَ عليهما لحظةٌ مؤلمة، ثم أخذ يدها بين يديه وقال لها: لا تقلقي يا عزيزتي، لم أصل بعدُ إلى الحد الذي أوقف فيه العربة لأسأل هل أعرفك أو لا.

وعندما نحسُّ بالعجز عن التعرف، كأن نقابل شخصًا وننسى وجهه أو اسمه، نعود بالذاكرة إلى الوراء نُفتِّش أين رأيناه أول مرة، فنحدّد مكانه وزمانه، ونربط بينه وبين غيره ممن نعرف. وفي ذلك يقول وليم جيمس: «كلما برزت لنا تجربةٌ مجردة عن موضعها في الزمان، يصعب علينا ألا نعتقد أنها من اختراع الخيال، ولكنها تُصبحُ قطعةً من الذاكرة وتتحدّد الذكري شيئًا فشيئًا كلما أحاطت بها روابطها الماضية، وكلما أصبحت هذه الروابط أكثر تمييزًا. دخلتُ يومًا عند أحد الأصدقاء، ورأيتُ صورةً زيتيةً معلقة على حائط حُجرتي، فأحسستُ أول الأمر إحساسًا غريبًا؛ لا ريب أنني رأيتُ هذه الصورة من قبل في مكانٍ آخر، ولكن أين؟ وكيف؟ لم أستطع قولًا. وظل هذا الإحساس بأنني رأيتها من قبل يطوف بالصورة إلى أن صحتُ فجأة: لقد وجدتها! إنها نسخة من رسم أنجليكو بأكاديمية فلورنسا. نعم لقد رأيتها هناك. لقد وجب أن أُحيي في ذهني خيال أكاديمية فلورنسا كي أتحقّق من صدق الذكرى للصورة.»

فهذه هي الطريقة لتدارك نسيان التعرف؛ أن تسعى لوصل ما تراه بما سبق أن رأيته من قبل.

نسيان الطفولة ونسيان الأحلام

من أغرب الظواهر الخاصة بالنسيان اختفاء الأحداث التي وقعت في الطفولة المبكرة، ونسيانُ الأحلام التي تمر بنا في النوم.

وليس من الممكن إجراء تجاربٍ معملية؛ أي في معامل علم النفس، كما فعل العلماء في الحفظ ومعرفة طرقه، ولذلك نلجأ إلى «التأمل الباطني»؛ أي أن ينظر الإنسان في باطن نفسه ليذكر ما يشاهده فيها. وهذه إحدى الحالات التي نُضطر فيها إلى الالتجاء إلى منهج التأمل الباطني أو الاستبطان. ويستطيع كل من يقرأ هذا الكتاب أن يفعل ذلك في نفسه، فيتأمل ذاته ويعود مع الماضي إلى الوراء يبحث عن أول ذكرى يستطيع أن يسترجعها في طفولته.

أما أنا فأقدم الذكريات التي وقعت لي هي حفل زفاف عمي، وكنتُ في ذلك الحين في الثالثة من العمر تقريباً. ولستُ أذكر أحداث ذلك اليوم بوضوح، وإنما هي لمحات تضيء بعض تلك الحوادث، ومنها أنني لبستُ «بدلة» جديدة، لستُ أدري أكانت أول بدلة لبستها أم لبستُ قبل ذلك غيرها. ولا أذكر لونها أو هيئتها، ثم أذكر زحمة شديدة وكأني كالضائع وسط ذلك الزحام، ثم أذكر عربةً مذهبة تجرّها عدة جياد، وكانت تُسمّى عربة «زينب هانم»، هي التي تركب فيها العروس، وأذكر أنها كانت واقفة في شارع قريب منا. وفي الليل أتذكر صورةً غامضة عن أضواء وموسيقى وأشخاص كثيرين وموائد للطعام، وأني بكيتُ ولا أعرف لماذا.

لعلك تلاحظ معي انقطاع الصلة بين تلك الصور الماضية، بحيث لا تُكوّن سلسلةً مرتبطة، وتلاحظ كذلك غموض تلك الصور، وتلاحظ ثالثاً أن الصفة العاطفية هي الغالبة، عواطف فرح وحزن ودهشة.

وهناك حوادثٌ أخرى بعد الثالثة من عمري لا أزال أذكر بعضها في غموض كذلك، مثل زهابي إلى كُتَّابٍ صغير قبل التحاقني بالمدرسة، حيث تعلَّمتُ في ذلك الكُتَّاب القرآن حتى سورة ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (النبا: ١)، وكنت أحمل لوحًا من الإردواز. وحادثتهُ أخرى لا أذكر إلا شيئًا يسيرًا منها، هي موتُ أخٍ لي كان اسمه محمودًا، مات محروقًا وهو يعبث بعيدان الثقاب، ولكنني لا أذكر من صلَّتي بهذا الأخ إلا صورةً واحدة وهي أننا نلعب بعد الظهر في فناء البيت.

ويهمُّني أن أذكر من ذلك الماضي البعيد شيئًا كنتُ أُسمِّيه «الكابوس»، ولا أعلم في أي سنٍّ كانت تلك الذكرى، فهي تدورُ حوالي الثالثة أو الرابعة، ففي البيت الذي كنا نقطُّه، وهو بيتٌ واسع فيه فناء، كنا نشغلُ الدَّور الثاني منه، وتتناولُ الطعام ونُنفقُ معظم الوقت في حُجرتين بين الدور الأول والثاني، ولم يكن نور الكهرباء قد عمَّ البيوتَ بعد؛ فالإضاءة بمصابيح الغاز. وحين يُقبلُ المساء، نتناولُ العشاء في تلك الحجرتين ثم يطلبون مني أن أصعد للنوم ويبقون هم، فاعتذرتُ مرَّةً عن الانصراف والصعود إلى أعلى واجتياز سُلَّم البيت، حتى لا أرى «الكابوس» كما كنتُ أُسمِّيه، وهو عبارة عن أشباحٍ تتراءى على الحيطان تُخيفني.

أشباح وخوف، هذا ما أذكره.

وهنا نجد تقاربًا بين نسيان الطفولة ونسيان الأحلام؛ لأن الأحلام أشباحٌ تتراءى، والأغلب أنها تُصبغُ بصبغةٍ انفعالية أهمُّها الخوف، فالعلة في نسيان أحداث الطفولة تشبه العلة في نسيان الأحلام. هذه العلة هي اقتراب الصور من «الحقيقة» أو ابتعادها عنها، ففي الطفولة، وخصوصًا المبكرة، تختلط الحقائق بالخيالات حتى لقد يعيش الطفل في عالمٍ من الخيال والأشباح، وفي النوم يرى النائم في أحلامه أضغاثًا من الرؤى يُخَيَّلُ إليه أنها حقائق؛ أي إن حقائق الطفل خيالات، وخيالات الحالم حقائق، ولا يستبقي الإنسان إلا الحقائق التي تُثبت أنها كذلك، وهو لذلك ينسى أحداث الطفولة؛ لأنه كان يُضفي على الحقيقة من خياله ما يجعلها أدنى إلى الأشباح، وينسى الأحلام؛ لأن عقله الواعي يعلم أنها أضغاثٌ وأباطيل.

هذه إحدى النظريات في نسيان أحداث الطفولة ونسيان الأحلام، وسوف نعود إلى تفصيلها بعد قليل.

وهناك نظريتان أخريان إحداهما نظرية فرويد الذي يذهب إلى أن نسيان أحداث الطفولة نتيجة «الكبت»، وكذلك الحال في الأحلام. والثانية نظرية جمهرة من علماء النفس

ومنهم «بيرون»، وهي أن نسيان أحداث الطفولة المبكرة يرجع فيما يبدو إلى سبب عضوي، هو قصور نمو المخ، ولكن هذه العلة إذا صحّت بالنسبة للطفولة فهي لا تُعَلَّل نسيان الأحلام. هذا فضلاً عن اختلاف الأفراد في نسيانهم اختلافاً كبيراً، فبعض الناس يذكرُّ أشياء وقعت له وهو في الشهر السادس، والبعض الآخر لا يذكرُّ شيئاً قبل سن الثامنة من العمر.

ففي تجارب فيكتور هنري وزوجته والتي أجراها على ١٢٣ طالباً من المراهقين كانت النتيجة كما يأتي:

السن	٦ شهور	٨	١ سنة	١ ½	٢	٢ ½	٣	٣ ½	٤	٥	٧	٨
العدد	١	٢	٤	٩	٢٣	٢٠	١٩	١٤	١٢	٦	٢	١

أما بلونسكي Blonsky فقد أجرى تجربتين؛ الأولى على ١٩٠ من الطلبة البالغين الروس، وتراوحت الذكرى بين سنة وثمانى سنوات. والأخرى على ٨٣ طالباً تتراوح سنهم بين ١١، ١٢ عاماً، فكانت النتيجة بين سنة وست سنوات. ويرى بلونسكي أن متوسط السن التي يتذكرُّ فيها المرء أحداث الطفولة هي الثالثة.

وأجرى برت Burt على ابنه البالغ من العمر ثمانى سنوات؛ إذ جعله يحفظ نصوصاً من اللغة الإغريقية، كان يقرأ عليه بعضها يومياً لمدة ثلاثة شهور، حين كان عمره بين خمسة عشر شهراً وثلاث سنوات، فرأى أن النصوص التي كان قد سمعها وهو طفلاً أسهل في حفظها عن الأخرى، مما يدل على وجود أثر تلك المحفوظات في تلك السن الصغيرة الغضة.

وقد فطن علماء النفس منذ القرن الماضي إلى احتفاظ الطفل بالآثار التي تقع تحت حواسّه، وإلى ظهورها تحت ظروفٍ خاصة، ومنها ظاهرة اللغات التي يكون الشخص قد سمعها في طفولته. مثال ذلك ما رواه ريبو نقلاً عن الدكتور دوفال من أن حطاباً عجوزاً كان يعيش في صباه على حدود بولندا، ولم يكن يتكلم إلا اللغة البولندية، ثم انتقل بعد ذلك إلى المنطقة الألمانية وعاش فيها، وأكد أولاده أنه لم يتكلم اللغة البولندية منذ أربعين سنة، وما سمعوا منه كلمة واحدة بولندية. وأجريت له عملية جراحية وظل مخدراً ساعتين كان يتكلم في خلالهما ويصلي ويغني باللغة البولندية فقط.

ومن العوامل التي تنفض الغبار عن ذكريات الطفولة، التخدير بالكلورفورم أو أنواع المخدرات الأخرى. ومن العقاقير الحديثة التي تُستعمل في ارتياد اللاشعور عقارٌ يُسمَّى

سكوبو كلورالوز Scopochloralose وقد لاحظ الأطباء ظهور ذكريات قديمة عندما يقع المريض تحت تأثير المخدر، فتبدّر منه أشياء تُعدّ من العجائب. من ذلك أن امرأة أخذت وهي تهذي تحت تأثير المخدر تُسمّع نصّاً من لغة أجنبية لا تفهم معناه كانت قد سمعته وهي طفلة دون أن تبدّل أي جهد في حفظه.

وكثيراً ما يلجأ علماء النفس إلى التنويم المغناطيسي لمعرفة الأحداث الماضية التي وقعت للمريض أثناء الطفولة ونسيها. وكان العلماء قد عدلوا عن التنويم المغناطيسي إلى طريقة «التداعي الحر» و«التداعي المقيّد» وذلك بأن يستلقي المريض في استرخاء ويأخذ في سرد أفكاره. إلا أن بعض المرضى يابّون أن يتذكّروا ويقاومون ظهور كوامن أنفسهم، ولذلك عاد العلماء منذ الحرب الأخيرة إلى استعمال التنويم المغناطيسي. مثال ذلك أن امرأة أُصيبت بداء الوسوسة وكلما غسلت يديها بالماء خيل إليها أنها دم، وظلت على هذه الحال ثلاث سنوات، فاستشارت أحد الأطباء النفسانيين، فتذكّرت وهي تحت تأثير النوم المغناطيسي أنها حين كانت في الخامسة من العمر شاركت في ذبح دجاجة فتلوّثت يداها بالدماء فغسلتهما، ولكن هذا المنظر أثّر في نفسها أثراً شديداً في ذلك الحين، ونسيته مع الوقت، إلى أن عاد إلى الظهور لا شعورياً وهي امرأة.

أما فرويد وأصحاب مدرسة التحليل النفسي، فإنهم يذهبون إلى أن كل ما يقع تحت حواس الطفل منذ أن وُلد يظل باقياً في نفسه لا يزول أبداً، ويحرك صاحبه لا شعورياً في مستقبل حياته. ويرجع فرويد إلى اللذة الجنسية كل سلوك الإنسان. ويزعم أن الوليد يشعر بلذة جنسية من لمس سطح جلده، وأن بعض المواضع أكثر حساسية من غيرها مثل الفم عند امتصاص الثدي، والأعضاء التناسلية وعند التبول والتبرز. ولذلك يُعلّل فرويد إدمان المدخن على وضع «السيجارة» في فمه إلى تلمّس تلك اللذة التي كان يُحسُّ بها وهو طفلٌ رضيع يمتصُّ ثدي أمه، أو الثدي الصناعي.

ويهمُّنا أن نبسط تحليل فرويد لنسيان الطفولة، فهو في مذهبه يتكون حوالي الخامسة من العمر، عندما يتكون «الرقيب» وهو عبارة عن حاجز من التقاليد والدين والنواهي التي تُفرض على الطفل وخاصة في الحياة الجنسية؛ إذ بعد أن كان الطفل حراً لا يعقل الأمور الجنسية ولا يُخفيها أهله عنه لقلّة إدراكه، إذا به يؤخذ بالشدة ويؤمر بإخفاء الأعضاء التناسلية ويحرّم عليه الحديث عنها، ويجد ستاراً حديدياً مضروباً حول هذه المسائل، وبذلك يتعلم أن «يكبت» الخواطر التي تدور حول الأمور الجنسية، وهنا يبدأ الرقيب أن يتكون ويصبح حاجزاً يُخفي وراءه كثيراً من الأشياء يتعوّد نسيانها مع الزمان، ويخاف

ظهورها ويهرب من النظر إليها، بل ومن التفكير فيها. وليس الحياء الذي يُصاحب المرء حين يواجه المسائل الجنسية إلا مظهرًا من مظاهر الخوف. ولذلك كان ما يُخفيه المرء، ويكبته، أو ينساه، هو ما يخاف منه، وما يكون مصدر ألم له.

ولا تثبتُ نظرية فرويد للنقد طويلًا؛ لأن متوسط سن النسيان لأحداث الطفولة هو الثالثة كما اتضح من التجارب العلمية، على حين أن الرقيب الذي يُحدثنا عنه فرويد لا يظهر إلا بعد الخامسة. ومن جهة أخرى نرى أن كثيرًا من ذكريات الطفولة التي لا تزال حية عند أصحابها هي ذكريات تقوم على الخوف أو الألم، مما يُناقض نظرية فرويد في الكبت.

ونحن نميل إلى تأييد النظرية الاجتماعية في نسيان الطفولة، وهي نفسها تنطبق على نسيان الأحلام.

وليس من الممكن تطبيق المناهج العلمية الموضوعية على الأحلام كما يفعل العلماء في ظواهر نفسية كثيرة؛ لأن الحلم يدور بينه وبين صاحبه ولا يمكن ملاحظته من الخارج، بل أكثر من ذلك لا يمكن لصاحبه أن يلاحظ نفسه وهو يحلم إلا بعد اليقظة، فإما أن يتذكر الرؤيا وإما أن ينساها. وذهب بعض العلماء إلى أن كل إنسان يحلم في نومه ولكنه لا يتذكر. والأغلب أن الحلم سريع النسيان، ولذلك نصح العلماء الذين يدرسون الأحلام أن يحتفظ المرء بورق وقلم إلى جانب السرير حتى إذا استيقظ عقب الرؤيا دونها مباشرة قبل أن تغيب في مجاهل النسيان. ويقول بعض العلماء إن الأحلام لا تظهر إلا في الوقت الذي يخف فيه النوم، أما النائم المستغرق في نومه فلا يحلم. وهم يعتمدون في تأييد هذه النظرية على أن الباعث إلى الأحلام هو الإحساسات الظاهرة أو الباطنة، ولا يُحس المرء إلا إذا كان في شبه يقظة.

وعند فرويد أن النوم الصحيح ما كان بغير أحلام، فإذا حلم المرء كان هذا دليلًا على أن صاحب الرؤيا لا يزال يتأثر بالمؤثرات الخارجية والداخلية، غير أن هذه التأثيرات خارجية كانت أم داخلية أي في صورة رغبات ومخاوف، تتحول إلى صور عجيبة في الحلم فلا توقظ النائم، ولذلك كان الحلم تحقيق رغبة لا يمكن تحقيقها في الواقع، وهو لهذا السبب «حارس النوم».

وتمتاز الأحلام بأمرين؛ خروجها عن منطق العقل في تركيب الصور، وعدم تقييدها بالزمان، وكلا الأمرين لا يتفقان مع الحياة الواقعية التي يعيش فيها الإنسان مع غيره من الناس، ويضطر إلى تقييد نفسه بترتيب الأحداث ووضعها في موضعها من الماضي؛ كي يكون مفهومًا من غيره حين يُحدثهم عن هذه الأحداث مُعبرًا عنها بالكلام.

فالحياة الواقعية تَضْطَرُّنا إلى التذكُّر؛ أي وضع الأشياء في موضعها الصحيح من الزمان. ويضرب الأستاذ بيير جانيه مثلاً لاضطرار المرء إلى التذكُّر بمعسكر لجماعة من البدائيين وضعوا عليه ديدباناً مكلِّفاً بمراقبة الأعداء ومعرفة حركاتهم ونقلها إلى رئيس القبيلة، ويضطرَّ الديدبان إلى رواية ما حدث من ذاكرته بطريقة مفهومة مرتبة، فهو يجيب عن أسئلة الرئيس واستفهاماته بأن هذا الشخص جاء «قبل» ذاك، وجرى هذا الشخص «بعد» ذاك، ووقع هذا الحادث في الصباح، وذلك الحادث عند الظهر، وهكذا. وإذا نسي الديدبان هذه الحوادث، أو اضطرب في روايتها، أدى ذلك إلى وقوع القبيلة بأسرها في الخطر.

ونحن في الحياة الواقعية مُضْطَرُونَ إلى التعامل مع غيرنا من الناس في هيئة معقولة من الكلام، وإلى ترتيب الحوادث ترتيباً صحيحاً، في سجل الزمان. نحن إذن في حياتنا الواقعية «مقيّدون»، ولا تحسبن أن هذا التقييد الذي تفرضه علينا الحياة الاجتماعية يروقنا، ولذلك نهرب منه؛ أي نهرب من القيود، ولكن أين المفر؟ إننا نهرب في أحلام اليقظة، وفي الأحلام، حيث نكون أحراراً لا نتقيد بترتيب الزمان، فالطالب في أول العام يتصور وهو في أحلام يقظته أنه نجح في الامتحان آخر العام، والتاجر يرى في أحلامه أنه كسب في تجارته، وكلاهما يحقق رغبته بغير جهد، ويقفز إلى المستقبل كأنه الحاضر دون أن يمر بمراحله.

جملة القول: لا يراعي الإنسان في أحلامه ترتيب الزمان، ولا يحفل به، فيرى الماضي حاضراً، ويجعل المستقبل ماضياً، وهذا كله اختلال لا ترتضيه الذاكرة، ولا حاجة بعد ذلك إلى النسيان، بل ولا حاجة إلى التذكُّر أصلاً، وهذا هو سر نسيان الأحلام عقب وقوعها. ومن هذا الوجه يمكن تعليل نسيان الطفولة أيضاً؛ لأن الطفل قبل الثالثة من العمر لا يُمَيِّزُ الزمان، فهو لا يعرف الوقت ولا يدري اليوم من الأمس حتى ليقول ذهبنا «باكر» إلى الحديقة وهو يريد «الأمس»، ولو سئل عن الوقت أهو ليلٌ أم نهار، لم يميز لأنه لا يعرف، فهو من أجل ذلك لا يستطيع أن يتذكر، وهذه هي علة نسيان الطفولة؛ نعني عدم إدراك الطفل للزمان.

وقد مر بنا في ابتداء هذا الكتاب أن الذاكرة نوعان؛ آلية ولفظية، أو حركية ومعقولة، ويضيف بعض العلماء إلى هذا التقسيم نوعاً ثالثاً الذاكرة «الوهمية»، فإذا كانت الآلية تعتمد على الإحساس والحركة وتعم الإنسان والحيوان، فإن الذاكرة اللفظية «اجتماعية»؛ لأن الألفاظ المنطوقة التي تُعبّر عن المعاني إنما نشأت لحاجة الإنسان إلى التعامل مع غيره

من بني جنسه ونقل أفكاره إليهم، أما الذاكرة الوهمية فهي «لا اجتماعية» وهي التي تظهر عند الطفل في بدء نشأته، وعند المريض الذي يَهْذِي، وعند النائم الذي يحُلُم؛ ذلك أن الصور التي تتتابع في الأحلام والهذيان تبعث مشاهد من الماضي، ولكن صاحبها لا يراها قطعة من الماضي، بل جزءاً من الحاضر؛ لأنها بالنسبة له حين يَهْذِي أو يحُلُم حاضر وواقع؛ ذلك أن الذاكرة في الحُلُم تعيش فيه كأنه هو الحقيقة، وقد يعتقد الحالم في حُلُمه إلى حدٍّ يبعثه إلى الحركة فينهض من فراشه ويأتي أعمالاً كثيرة كما هي الحال في «الجولان النومي».

ويذهب معظم العلماء إلى أن ظهور ذكريات الطفولة المبكرة نوع من فيض التذكُّر أو إفراط في التذكُّر Hypermnésie، كهذه الأمثلة التي ضربناها عن الذين تذكُّروا لغات أجنبية سمعوها في الطفولة. ويُفسَّر جان ديلاي هذا الإفراط بأنه تحرير للذاكرة الوهمية التي تحجزها الذاكرة الاجتماعية عادة، وما يتصل بالحياة الاجتماعية من انتباه وتقيد وملاءمة مع الواقع، فإذا زالت الحواجز الاجتماعية تحطَّمت الذاكرة العقلية وفاضت الصور على هواها، وكان ذلك علة أمراض الذاكرة.

جملة القول: نحن نذكر ما يهْمُننا كما قلنا من قبل، وما يهْمُننا خاضع لمنطق الواقع في الحياة الاجتماعية، اللهم إلا إذا عجز المرء عن مسايرة المجتمع ولقي منه عنقاً، فهو يهرب منه ويعيش في عالم الوهم والخيال، ويخلق الصور على هواه. وهذه هي حال الطفل، وحال النائم الحالم.

ومما يُلَاحَظ أن الطفل يمر بالذاكرات الثلاث على التوالي، فهو يبدأ بالذاكرة الآلية فتنشأ عنده عادات تقوم على ما يتعلَّمه بطريق المحاولة وحذف الأخطاء وطريق الأفعال الشرطية. ويمر بعد ذلك وهو في الثانية والثالثة والرابعة بمرحلة الذاكرة الوهمية التي يعيش فيها في عالم من الخرافة والأوهام، لا يميز بين الماضي والحاضر، ولا يفصل بين الخيالي والحقيقي. وهناك بعض الصبيان المتخلفين يقفون عند هذه المرحلة مع بلوغهم سنّاً كبيرة، حتى إذا بلغ الطفل الخامسة بدأ في مرحلة جديدة هي مرحلة الذاكرة الاجتماعية، وهي ذاكرة منطقية مرتّبة تنتظم في سلك الزمان.

وإن قد وقَّينا البحث عن النسيان الطبيعي الذي يُعْمُ أغلب الناس، فلنكتفِ بهذا القدر ولننتقل إلى الحديث عن النسيان الذي يُعد في باب المرض والشذوذ.

النسيان في الحياة اليومية

اهتم فرويد بهذا الموضوع منذ أكثر من خمسين عامًا، وكتب فيه كتابًا اسمه «المرض النفسي في الحياة اليومية»، نُقل إلى معظم اللغات الحية، ما عدا اللغة العربية. وقد قرأتُ الكتاب منقولاً إلى الفرنسية، وتُوجد منه طبعةٌ إنجليزية رخيصة، ولكن ترجمته إلى العربية في غاية الصعوبة؛ لأن المؤلف يشير إلى أسماءٍ واصطلاحاتٍ باللغة الألمانية لا تُفهم إلا في أصلها. والكتاب — على الرغم من مخالفتنا لمذهب صاحبه — في غاية الطرافة؛ لأنه يقوم على رواية حوادثٍ شخصيةٍ يُحلّلها فرويد على نفسه أو يحكيها عن أشخاصٍ عَرَفَهم وسألوه رأيهم. وهو يتحدث في الفصل الأول عن نسيان أسماء الأعلام، وفي الثاني عن الأسماء الأجنبية، وفي الثالث عن نسيان الألفاظ، وفي الرابع عن ذكريات الطفولة، إلى فصولٍ أخرى كثيرة.

ونحب أن نقف عند ذكريات الطفولة ليكون الحديث موصولاً بما سبق. وليس من المهم أن نبدأ ببابٍ معين؛ لأن فرويد صاحب نظرية عامة يُفسّر بها جميع المظاهر النفسية. وأساس هذه النظرية الاعتقاد بوجود «حتمية بسلوكية» أي إن أي سلوكٍ إنساني مهما يكن تافهًا فلا بد أن يخضع لعلّة، وإذا عجزنا عن معرفة هذه العلة فذلك نقصٌ في علمنا، ثم يُقسّم فرويد الحياة النفسية إلى شعورية ولا شعورية، وأن الأحداث اللاشعورية هي التي تُوجّه السلوك الشعوري. وهذه الحياة اللاشعورية لها منطقها الخاص، وإذا أُخفيت بعض الأمور نتيجة «الكبت»، فإنها تظهر في ثوبٍ مُقنّع بما يُسمّى الاستبدال أو الانتقال. ويعتمد فرويد على النسيان في الدلالة على وجود هذه الحياة اللاشعورية.

ولنرجع إلى حديث نسيان الطفولة. وقد لاحظ فرويد أن أحداث الطفولة المُبكرّة التي نذكرها هي في الغالب تافهةٌ وعديمة القيمة، وننسى إلى جانب ذلك حوادثٍ أخرى عظيمة الأثر، فإن قال قائل إن التذكّر يقوم على الاختيار، وإن الطفل قد اختار هذه الأحداث دون

غيرها؛ لأن عقليته تختلف عن عقلية الكبار، ردَّ عليهم فرويد بأن النظر العميق يدل على أن هذه الحوادث التافهة لها دلالتها؛ لأنها تخفي وراءها أموراً أخطر، وترتبط بها بما يسميه عملية الاستبدال Déplacement، ومن أجل ذلك يُسمَّى فرويد حوادث الطفولة التي نتذكرها حوادثٍ للتعمية أو التغطية Souvenirs de couvertures، لأمرٍ جنسية يكتبها صاحبها.

هذا شابٌّ في الرابعة والعشرين، يتذكَّر وهو في الخامسة أنه جالس في حديقة منزلٍ ريفي إلى كرسي بجانب عمته التي كانت تُعلِّم الأبجدية. ولقي مشقة في التمييز بين حرف الميم والنون (باللغة الإفرنجية M و N) فطلب من عمته أن تعلمه كيف يُميِّز بينهما، فأخبرته أن الميم (بالإفرنجية طبعاً) لها رجلٌ تزيد على النون. وحوالي ذلك الوقت أراد أن يعرف الفرق بين الولد والبنت، فطلب من عمته أن تُخبره عن هذا الفرق، فأجابته الجواب نفسه. يقول فرويد إن العلة في تذكر هذه الحادثة التافهة؛ أي الفرق بين الميم والنون، رمزٌ يُخفي وراءه التمييز الجنسي بين الولد والبنت.

لَفَت النسيان نظر فرويد ولم تُقنعه تحليلات غيره من العلماء، فأخذ يُراقب نفسه يُحلِّلها، كما أخذ يصف ذاكرته وقُوَّتها قال: إني لا أنسى بسهولة، وكنتُ في حادثة سني صاحب ذاكرةٍ فائقة الحد في القوة؛ ففي عهد التلمذة كان يلدُّ لي أن أُرَدِّد عن ظهر قلبٍ صفحةً بأكملها عقب قراءتها، وكان في استطاعتي إعادة محاضرةٍ علمية بعد سماعها. واستطعتُ في امتحان دبلوم الطب أن أُجيب عن الأسئلة بما جاء في الكتب المقرَّرة، مع أنني لم أقرأها إلا مرةً واحدة قراءةً عاجلة. ولم تضعف ذاكرتي منذ ذلك الحين.

وإنما ساق فرويد هذه المقدمة عن قوة ذاكرته ليبيِّن أنه إذا نسي بعد ذلك شيئاً كان الأمر يدعو إلى الغرابة. وهذه إحدى نوادر نسيانه قال: كنتُ مكلفاً أن أشتري لسيدة جاءت حديثاً إلى حيناً صندوقاً حديدياً تحفظ فيه أوراقها وأموالها، وكان في ذهني في الوقت الذي عرضتُ عليها معونتي صورةً واضحة لواجهة محل في وسط المدينة رأيتُ فيه هذا النوع من الخزائن. ومع أنني لم أذكر اسم الشارع إلا أنني كنتُ على يقينٍ من العثور على المحل إذا تجولتُ في المدينة؛ لأنني أذكر أنني مررتُ به مئاتٍ من المرات، ولكن العجيب من الأمر أنني عجزتُ عن معرفة المحل، على الرغم من البحث في الدليل لمعرفة عنوان جميع مصانع الخزائن. ولم أكن في حاجةٍ إلى ذلك كله؛ إذ لم يكد بصري يقع على اسم المحل في الدليل حتى عرفته وتذكرته. ولا ريب أنني كنتُ قد مررتُ بذلك المحل مئات المرات من قبلُ كلما ذهبتُ لزيارة أسرة «فلان» التي تسكن في البيت نفسه الذي يوجد فيه ذلك المحل، فلما

قَطَعْتُ صِلَتِي بِتِلْكَ الْأُسْرَةِ تَعَوَّدْتُ دُونَ أَنْ أَشْعُرَ أَنَّ أَتَجَنَّبُ الْمُرُورَ فِي ذَلِكَ الْحَيِّ وَبِتِلْكَ الدَّارِ، نَتِيجَةُ الشُّعُورِ بِالكَرَاهِيَةِ لِأَهْلِ الدَّارِ. أَمَّا نَسِيَانُ مَحَلِّ الْخَزَائِنِ فَيَرْجِعُ إِلَى ارْتِبَاطِهِ بِالْدارِ، أَوْ عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ فَرْوَيْدِ نَتِيجَةُ عَمَلِيَةِ اسْتِبْدَالٍ أَوْ انْتِقَالٍ.

وَمِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَشْكُو كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ نَسْيَانَهَا الْأَشْيَاءُ الَّتِي يَطْلُبُونَهَا مِنْ مَوَاضِعِهَا فَلَا يَعْتَرُونَ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّهُمْ يَنْسَوْنَ أَيْنَ وَضَعُوهَا، كَالْحَالِ فِي الْمَوْلَفِ الَّذِي يَنْسَى أَيْنَ وَضَعَ كِتَابًا أَوْ وَرْقَةً. وَيَزُوي فَرْوَيْدُ أَنَّهُ لَا يَجِدُ صَعُوبَةً مَا فِي الْبَحْثِ عَنْ كِتَابٍ وَضَعَهُ عَلَى مَكْتَبِهِ، وَلَكِنَّهُ عَجَزَ فِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ عَنْ إِيجَادِ قَائِمَةٍ بِالْكَتَبِ (كَتَالُوجٍ) اسْتَلَمَهُ بِالْبَرِيدِ، وَكَانَ عَازِمًا أَنْ يَطْلُبَ كِتَابًا قَرَأَ عُنْوَانَهُ فِيهِ وَهُوَ يَتَعَلَّقُ بِاللُّغَةِ، وَمُؤَلَّفُهُ مِمَّنْ يَحِبُّ فَرْوَيْدُ أَسْلُوبَهُمْ وَيُقَدِّرُ آرَاءَهُ فِي عِلْمِ النَّفْسِ وَالتَّارِيخِ وَالْحَضَارَةِ، وَيَذْهَبُ فَرْوَيْدُ إِلَى أَنَّ هَذَا الْإِعْجَابَ بِصَاحِبِ الْكِتَابِ هُوَ عِلَّةُ نَسْيَانِ الْكِتَالُوجِ.

وَنَقُلُ فَرْوَيْدَ عَنْ غَيْرِهِ هَذِهِ الْحَادِثَةُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ مَعْرِفَةَ سَبَبِ النِّسْيَانِ يُوْدِي إِلَى ذَهَابِ النِّسْيَانِ، قَالَ: أَرَادَتْ فَتَاةٌ أَنْ تَقْصُ قِطْعَةً مِنَ الْقِمَاشِ فَأَفْسَدَتْهَا عِنْدَمَا قَصَّتِ الْيَاقَةَ، وَاضْطُرَّتْ إِلَى اسْتِدْعَاءِ حَائِكَةِ ثِيَابٍ لِإِصْلَاحِ مَا أَفْسَدَتْهُ. فَلَمَّا وَصَلَتْ الْحَائِكَةُ بَحِثَتْ الْفَتَاةَ فِي كُلِّ مَكَانٍ عَنِ الْقِمَاشِ، وَقَلَبَتْ الْأَدْرَاجَ رَأْسًا عَلَى عَقَبٍ دُونَ فَائِدَةٍ، حَتَّى إِذَا أَخَذَ الْغَضَبُ مِنْهَا مَأْخِذَهُ، أَخَذَتْ تُحَدِّثُ نَفْسَهَا قَائِلَةً كَيْفَ اخْتَفَى الْقِمَاشُ؟ لَا رَيْبَ أَنِّي «لَا أَرِيدُ» الْعَثُورَ عَلَيْهِ. وَلَمَّا عَادَ الْهَدُوءُ إِلَى نَفْسِهَا تَبَيَّنَتْ أَنَّهَا كَانَتْ فِي خَجَلٍ أَنْ تُظْهِرَ الْحَائِكَةَ عَلَى عَجْزِهَا عَنْ قَصِّ يَاقَةِ فَسْتَانٍ، وَبَعْدَ أَنْ اطْمَأَنَّتْ إِلَى هَذَا التَّفْسِيرِ، قَامَتْ مِنْ مَكَانِهَا وَاتَّجَهَتْ إِلَى أَحَدِ الدَّوَالِبِ وَاسْتَخْرَجَتْ مِنْهُ قِطْعَةَ الْقِمَاشِ.

وَأَنْتَ تَرَى مِنْ هَذِهِ الْأَمْثَلَةِ الْيَسِيرَةِ الَّتِي نَقَلْنَاهَا عَنْ كِتَابِ فَرْوَيْدِ أَنَّهُ لَا يُرْجِعُ كُلَّ نَسْيَانٍ إِلَى عِلَّةٍ جَنْسِيَةٍ، أَوْ إِلَى عِلَّةٍ عَمِيقَةٍ الْجَذُورِ فِي الطُّفُولَةِ؛ فَقَدْ يَكُونُ الْأَمْرُ مَجْرَدَ بَغْضٍ أَوْ نَفُورٍ أَوْ هَيْبَةٍ أَوْ خَوْفٍ، وَلَكِنْ هَذِهِ الْعَوَاطِفُ تَكْمُنُ فِي اللَّاشْعُورِ وَتُحَرِّكُ صَاحِبَهَا. وَالرَّأْيُ عِنْدِي الَّذِي وَصَلْتُ إِلَيْهِ نَتِيجَةُ تَجَارِبِي الْخَاصَّةِ أَنَّ مَا يَحِبُّهُ الْمَرْءُ يَقْبَلُ عَلَيْهِ وَيَذْكُرُهُ، وَمَا يُبْغِضُهُ يَنْفَرُ مِنْهُ وَيَبْتَعِدُ عَنْهُ، إِمَّا شَعُورِيًّا وَإِمَّا لَا شَعُورِيًّا، فَهَذِهِ سَيِّدَةُ أَغْلَقْتُ الدَّوَالِبَ بِالْمِفْتَاحِ وَوَضَعْتُ الْمِفْتَاحَ فِي حَقِيبَتِهَا عِنْدَ خُرُوجِهَا؛ خَشْيَةً أَنْ تَمْتَدَّ يَدُ الْخَادِمَةِ إِلَى الْعَبَثِ بِالْمُجُوهَرَاتِ الْمَوْضُوعَةِ فِي صَنْدُوقٍ دَاخِلِ الدَّوَالِبِ وَأَنْ تَسْرِقَهَا. وَيَتَضَحَّ بِعَدِّ ذَلِكَ أَنَّ السَّيِّدَةَ حِينَ تَنْبَهَتْ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ وَنَظَرَتْ إِلَى الصَنْدُوقِ، كَانَتْ قَدْ أَخْرَجَتْهُ وَوَضَعَتْهُ عَلَى السَّرِيرِ إِلَى جَانِبِ الدَّوَالِبِ وَنَسِيَتْهُ هُنَاكَ. فَلَمَّا عَادَتْ مِنَ الْخَارِجِ عَجَبَتْ كَيْفَ نَسِيَتْ الصَنْدُوقَ عَلَى السَّرِيرِ مَعَ شِدَّةِ عَنَائِطِهَا أَنْ تَحْفَظَ عَلَيْهَا مِنَ السَّرِقَةِ، وَأَنْ تَقْفَلَ عَلَيْهَا بِالْمِفْتَاحِ. وَتَبَيَّنَ مِنَ التَّحْلِيلِ النَّفْسَانِيِّ أَنَّهَا تَرُغِبُ فِي تَغْيِيرِ حَلِيِّهَا وَشَرَاءِ حَلِيٍّ جَدِيدَةٍ.

وكنْتُ في صدر شبابي حادَّ الذاكرة لا أنسى مما أقرأ شيئاً، وكان يكفي أن أقرأ الكتاب مرةً واحدة حتى ترتسم صفحاته في ذهني، حتى إذا حضرتُ الامتحان تمثَّلتُ الكتاب أمامي كأني أقلِّبه؛ ذلك أن ذاكرتي بصرية، وقراءتي صامتة. واشتريتُ وأنا في الثانية عشرة من عمري مصحفاً صغيراً أضعه في جيبِي وعزمت على حفظ بعض سُور من القرآن ومنها سورة «يس»، ثم انقطعتُ عن قراءة القرآن وحفظه، وسألني والدي فيما بعد — وكان كثير التلاوة والعبادة — لماذا لا أحفظ القرآن؟ فأخبرته أنني أحفظُ سورة «يس»، فلم يُصدِّق، فتلوْتُها عليه فاندَهِش، ولكن هذه الذاكرة الشديدة القوة قد زهبتُ الآن إلى درجة أنني أنسى أسماء الكتب ومؤلفيها مع اشتغالي بتدريسها. وأغرب من ذلك نسيان أسماء الأشخاص الذين أعرفهم والذين تربطني بهم صلاتٌ قوية. وكثيراً ما تُحدث لي هذه الظاهرة الضيق والحرج؛ إذ أقابل شخصاً في الطريق أعرفه من شكله، فأسَلِّم عليه، ويُهْدِينِي السلام، ويُحِينِي باسمي، وتحدث معاً حديث الأصدقاء، ولكن اسمه يهرب مني ولا يجري على لساني، وقد أذكره بعد أن نفترق وبعد أن أفتُش عنه في ذاكرتي مستعيناً بالروابط الذهنية الماضية. وينكشف حرجي إذا كان معي صديقٌ آخر، أو قدم علينا شخصٌ ثالث، ويصبح من واجبي القيام بتقديم أحدهما إلى الآخر، وتعريف بعضهما إلى بعض.

وأخبرني أحد أصدقائي المحامين، وكنا نتحدَّث عن عجائب النسيان، وأخذ كل واحدٍ يذكُر نواتره، قال: كَلَّفَنِي صاحب المكتب الذي أشتغل عنده أن أبحث قضيةً وأكتب فيها مُدْكَرَةً، وبعد يومين سألني عن رأيي في تلك القضية، فقلتُ له إنني لم أبحثها بعدُ. قال: كيف لم تبحثها وقد قَدِّمْتَ في موضوعها مذكرة؟ قلتُ: إنني لم أكتب أي مذكرة. فأخرج من بين أوراقه المذكرة وأطلَعَنِي عليها، وقال: أليس هذا خطك؟ وعندئذٍ فقط تذكَّرتُ، وعجبتُ لهذا النسيان.

ومن أغرب حوادثِ النسيان التي وقعت لي أنني كنت في زيارة برلين عام ١٩٣٦ في دورة الألعاب الأولمبية، وكانت النقود التي يصرفونها في ذلك الحين نقود سياحةٍ تقل أربعين في المائة عن السعر الرسمي لاجتذاب السائحين، على أن يُصرف هذا النقد أو المارك مع التوقيع على جواز السفر في صورة شيكاتٍ تُسمَّى «الرايخ مارك» وهي لا تُصرف إلا من البنك، ففي صباح اليوم الثاني من وصولي برلين ذهبتُ إلى البنك لأصرف الشيكات، ولكنني نسيْتُ جواز السفر في الفندق، فلم أستطع الصرف في ذلك الصباح. وعُدْتُ بعد الغداء إلى الفندق، وجلستُ عند الأصيل أكتب بعض الرسائل إلى أصدقائي، ولحْتُ أمامي جواز السفر فقلتُ ضعه في جيبك حتى لا تنساه، ثم تحسَّستُ شيكات الرايخ مارك فلم

أجدها، فطار صوابي؛ إذ لم يكن معي مالٌ غيرها أنفقته في ذلك البلد، وجلستُ أتذكرُ أين وضعتها، وأين يمكن أن أكون قد نسيْتُها، واستعرضتُ جميع الأماكن التي ذهبتُ إليها، وطرقْتُها أسألها، وأخيراً ذهبتُ صباح اليوم التالي إلى البنك وسألتُ عنها، فأخبرني الموظف هناك أنني نسيْتُها على المنضدة.

وأحسب أن تحليل فرويد من أنني أكره هذه الشيكات في اللاشعور تعليلٌ لا يستقيم. وإنما العلة الصحيحة هي تلك القاعدة التي سبق ذكرها من قبلُ في باب الحفظ، وهي عدمُ التداخل؛ لأن ازدحام الذهن بعدة أمور في آنٍ واحد يؤدي إلى التضارب وإلى الاختلاط. وقد قيل ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه.

هذا إلى أنني حين أشتغل بعملٍ عقلي، كتأليف كتاب، أو كتابة مقالة، أو إلقاء محاضرة، أنصرف إليه انصرافاً تاماً، فأستغرق فيه، وأظل أفكرُ في الموضوع حتى وأنا أمشي في الطريق أو أركب الترام أو أختلف إلى مجلسٍ من الأصدقاء، حتى إذا اجتذبتني التأملُ ذهلتُ عما حولي. وأحسب أن هذا الاستغراق شرط كل منتج وكل مبتكر. وليس من الغريب بعد ذلك أن تسمع القصص عن بعض العلماء الذين نسوا حتى أسماءهم؛ لأن أذهانهم كانت مشغولة بالتفكير في حل المسائل.

وقد يكون الاستغراق الذي يصرف الذهن عن الناس وعن الأشياء، لعلّة أخرى غير علة الابتكار والاختراع والتأليف؛ لأن انشغال البال قد يرجع إلى الهموم التي تُفضي إلى القلق. وما بالكَ بمن فقد ماله أو ولده أو أُصيب بمرض يستعصي شفاؤه، وغير ذلك من الصعاب التي تفاجئ المرء ولا يجد لها حلاً أو مخرجاً، فيظل حبيس نفسه تُثقله الهموم وتدور في رأسه الأوهام، حتى ليغفل عما حوله، وإذا اشتد به الهم نسي كل شيء، لا بعض الأسماء أو الأشياء فقط. ومن شأن الكوارث إذا نزلت أن تزيد في حدة التذكر أو تدفع إلى النسيان كما قال البحري يصف إيوان كسرى:

نَكَّرْتَنِيهِمُ الْخُطُوبُ التَّوَالِي وَلَقَدْ تَذَكَّرُ الْخُطُوبُ وَتُنْسِي

ثم إن اتساع العمران وتعدد المصالح في الحضارة الحديثة، مما تنوع به ذاكرة أي فرد، ومن أجل ذلك اهتدى الإنسان إلى الكتابة يُقيّد معلوماته، وأصبح يستعين بالمدكرات أو المُفَكِّرات يُدَوِّن فيها مواعيده ويعلم منها مصالحه في غده وما بعد غده. وهذا التقييد ضربٌ من التنظيم حتى لا يُعوّل المرء تعويلاً تاماً على ذاكرته، التي قد تُثقلها المشاغل والمواعيد.

ولكن فرويد لا يؤمن بهذه الأسباب العامة، ويحاول أن يلتمس سبباً لنسيان كل اسم يغفل عنه من يريد تذكره. وهو ينعى على غيره من علماء النفس — في استهلال الكتاب الذي ننقل عنه — أنهم إذا سُئِلوا لِمَ ينسى المرء اسمَ صديق؟ قالوا: لأن أسماء الأعلام أقرب من غيرها إلى النسيان، ثم يزوي فرويد قصة نسيانه اسم فنان يُسمَّى سنيوريي Signorelli مُعلِّلاً ذلك بالكبت والإبدال. قال: كنتُ في رحلة ومعِي أحد الغرباء في العربية ونحن نجتاز دلماسيا من أعمال البوسنة عام ١٨٩٨، ودار بيننا الحديث حول إيطاليا، وسألتُ رفيقي هل زار مدينة أورفيتو Orvieto حيث توجَد الكاتدرائية المشهورة التي صُوِّر على جدرانها الأستاذ ... وهنا نسيْتُ اسم ذلك الأستاذ، وقَفَز إلى خاطري بدلاً منه اسم مُصوِّرَيْن آخَرَيْن هما بوتشيلي Botticelli وبولترافيو Boltraffoi، عرفتُ في الحال أنهما غير مقصودَيْن. وشرعتُ أبحث عن السبب في نسيان اسم «سنيوريي»، فرأيتُ أنه نتيجة اضطرابٍ بين موضوع الحديث السابق وبين هذا الحديث؛ ذلك أني قبل أن أسأل رفيقي عن زيارته مدينة أورفيتو، كنا نتحدثُ عن عادات الترك الذين يقطنون البوسنة والهرسك، وقلتُ لرفيقي ما نقله إليَّ أحد الأصدقاء من أن هؤلاء الأتراك يثقون ثقةً عمياء بالطب، كما ينفرون نفوراً قوياً من الموت. وذكرتُ له كذلك قصةً أخرى عن انغماس هؤلاء القوم في الأمور الجنسية، وأن أحدهم إذا أُصيب باضطرابٍ أو ضعفٍ جنسي جزع جزعاً شديداً لا يتلاءم مع نفورهم من الموت. وروى صاحبي ما قاله له أحد المرضى من أن الأمور الجنسية إذا اضطربت، فلن تُساوي الحياة شيئاً. وعدلتُ عن هذا الحديث الدقيق الشائك مع رفيق سَفَرٍ غريب وحوَلْتُ مجرى الحديث عن كل ما يتصل بالجنس والموت. وكنتُ في ذلك الوقت واقِعاً تحت تأثير حادثةٍ علمتُ نبأها منذ أسابيع بعد إقامة قصيرة في مدينة ترافو Trafoi؛ ذلك أن أحد المرضى الذين كنتُ أعالجهم انتحر بسبب اضطراباتٍ جنسية لم يُشفَ منها. وعلى الرغم من محاولتي إبعاد الحديث عن الأمور الجنسية من ذهني، فإن تلك الحادثة كانت تُلِحُّ في الظهور، عن لا شعور، وذلك للصلة بين اسم بولترافيو المُصوِّر، واسم المدينة ترافو. كنتُ أودُّ نسيان ما يتصل بتلك المدينة، فأدّى ذلك إلى «كبت» ذلك الأمر. حقاً لم أكن أرغب في نسيان اسم المُصوِّر الذي صُوِّر على حوائط كنيسة أورفيتو، إلا أن الرابطة بين ذلك الأمر وهذا الاسم، أدّت إلى نسيان اسم الشخص رغماً عني، على حين أن عزمي كان متجهاً إلى نسيان تلك الحادثة.

وهكذا يمضي فرويد في تحليلٍ طويل؛ ليبين فيه الصلة بين نسيان أسماء الأعلام وبين حوادثٍ أخرى يُريد الإنسان كبتها ودفعها إلى مجاهل النسيان.

وهناك طائفة من الأمثلة يضربها فرويد على نسيان الأسماء وترجع إلى «عقدة شخصية»؛ أي إلى موضوع يتصل بشخصه ويثير فيه انفعالات قوية هي في الأغلب مؤلمة. والغريب أن الرابطة بين الاسم الذي ينساه فرويد وبين شخصه رابطة لا يتوقعها، فهي تقوم على تشابه ظاهري، في الرسم أو الصوت أو المعنى. مثال ذلك أن أحد مرضاه طلب منه أن يذّله على عين ماء ساخنة في الريفييرا، وكان يعرف إحدى هذه العيون، بل ويعرف كذلك اسم الطبيب الذي يُعالج عندها، ولكنه عجز عن تذكر اسم تلك العين، فالتمس من المريض الانتظار بعض الشيء حتى يسأل بعض أقاربه. وقيل له كيف تنسى اسم ذلك الطبيب وقد أمضيت عنده زمناً، إنه يدعى نرفي Nervi، ويعلل فرويد نسيان ذلك الاسم بأنه قريب الشبه من لفظة الأعصاب بالألمانية Nerven والأعصاب والأمراض العصبية هي التي تشغل باله على الدوام.

ويُروى «يونج» أن شخصاً كان يحب فتاة، ثم تزوّجت من شخص آخر غيره، كان يعرفه من زمنٍ طويل لصلة أعمال بينهما، فإذا به الآن ينسى اسمه كلما أراد أن ينطق به، وإذا أراد أن يكتب إليه رسالة طلب معرفة اسمه من شخص ثالث. ولا ريب في أن مذهب فرويد وأصحاب التحليل النفساني له وجهته، وهو يُفسّر إلى حدٍّ كبير العلة في نسيان الأسماء والأشياء، لولا بعض المغالاة التي يتصف بها مذهب.

فقدان الذاكرة

هذه قصةُ قرأتها في جريدة «الأخبار الجديدة» بتاريخ ١٨/٩/١٩٥٣ عن شابٍّ في التاسعة عشرة من عمره فقدَ الذاكرة، ولا يعرف اسمه، ولا بلده، ولا أهله، ولا صناعته، ولا تاريخ حياته، ثم فقدَ النطق بعد أن فقدَ الذاكرة.

وأول مرة أُغمي عليه فيها هي ٢٦/٨/١٩٥٣، وأصبح لا يذكر شيئاً عن ماضيه قبل ذلك. وقد استيقظ من إغمائه ليجد نفسه فجأةً في منزل رجلٍ فقير لا يعرفه، أخذ يُعنى به حتى إذا عاد إلى نفسه واستمع إلى صاحب الدار يروي له كيف وجده مُغمى عليه في الطريق، أسرع بالخروج إلى الطريق مرةً ثانية. وحاول أن يتذكَّر عنوانه أو الحادثة التي وقعت له، أو حتى اسمه، فلم يستطع. وعندئذٍ عرف أنه فقدَ ذاكرته، وفقدَ أهله، وفقدَ ماضيه، كأنه وُلد من جديد. وسار في الطرقات على غير هدًى بلا هدف يحاول البحث عن أهله دون جدوى. وشعر في أثناء سيره بشارع الأزهر بثقلٍ شديد في رأسه فقدَ على أثره الحس، وأفاق من غيبوبته ليجد نفسه في مستشفى الدمرداش وحوله جمعٌ من الأطباء، قالوا إنه تناول مخدرًا قويًا أفقدَه الذاكرة، فأجرى له غسيل في المعدة ولم يُعثر على أي أثرٍ لمخدر، ثم جاءه ذات صباح ضابطٌ وبعض رجال البوليس وأخذوه من المستشفى إلى قسم الدرب الأحمر حيث حُجز خمس ليالٍ، ثم أُخلي سبيله.

وأُغمي عليه مرةً ثانية، ولكنه أفاق ليجد نفسه فاقد النطق أيضًا، وأصبح كالحيوان الأعجم لا يخاطب الناس إلا بالإشارة، وعندئذٍ سعى إلى الانتحار بسكين، بعد أن فقدَ وعيه، وعثر عليه أحد رجال البوليس، ونُقل إلى مستشفى الدمرداش، حيث صوَّروا المخ بالأشعة فلم يظهر بها أي أثرٍ لاختلالٍ غير طبيعي.

وطلب ورقًا وقلمًا، وكتب ما يأتي: «حياةً فارغة ... عديمة اللون ... عديمة الطعم ... لا أهل ولا أصدقاء ... حتى اسمي الذي حملته ما يزيد على تسعة عشر عامًا فَقَدْتُهُ في ثوانٍ ...»

وطلب الشاب أن تُنشر صورته لعل أهله يتعرّفون عليه. ولم أتبّع هذه الحالة لبحثها ومعرفة العلة في هذا المرض النفساني. وإنما أحببت أن أبين كيف يقع بعض الناس فريسة فقدان الذاكرة فقداً تاماً، وليس هذا من الغريب. وقد قسّم العلماء أمراض فقدان الذاكرة قسمين؛ الأول عضوي Organogènes والثاني نفساني Psychogènes، فالقسم الأول — وهو العضوي — يرجع إلى إصابة المخ لأي سبب من الأسباب من عدوى أو سموم أو أورام، ولذلك يجب أن يتجه الطبيب إلى بحث المخ لمعرفة السبب، فلو أن فقدان الذاكرة يرجع إلى إصابة المريض بمرض الزهري، أو بورم في المخ، فإن علاج الزهري أو استئصال الورم يؤدي إلى شفاء المريض واستعادته ذاكرته. ولا نزاع في وجود علاقة بين المخ والذاكرة، بدليل أن الشخص إذا وقع على رأسه أو ضرب ضرباً قوياً على رأسه، فإنه يفقد الذاكرة فقداً «مؤقتاً»؛ نعني لفترة بسيطة من الزمن قد تكون ساعة أو يوماً أو شهراً، وقد تمتد إلى الماضي كله، كما حدث في حالة صاحبنا الذي ذكرناه في أول هذا الفصل، وقد تُمحي صفحة واحدة من الماضي أو عدة صفحات. وهذه كلها أمراض نفسانية لا يكفي في تفسيرها إصابة المخ. وكان العلماء في القرن التاسع عشر قد اصطنعوا النظرية المادية في تفسير النسيان، واعتنق «ريبو» — بوجه خاص — مذهب انطباع الصور في المخ، وذهب إلى أن إصابة أي مركز من المراكز في المخ هو الذي يؤدي إلى النسيان، ولكن هذه النظرية لم تقف طويلاً أمام النقد القائم على المشاهدات؛ لأن الذكريات لا تُمحي، بل تختفي فقط، ثم تعود إلى الظهور. ومن أجل ذلك درس بعض العلماء القوانين النفسانية التي يخضع النسيان لها، وصاغ في ذلك جاكسون Jackson قانوناً يُعرف باسم قانون «الانحلال» Dissolution تتراجع فيه الذكريات من التعقيد إلى البساطة، ومن الإرادة إلى الآلية. وإذا طبقنا هذا القانون على الحالة المذكورة سابقاً رأيناه مستقيماً، فقد نسي الشاب كل شيء ما عدا الأعمال الآلية، كالمشي والأكل واللبس، والكتابة.

وللعلماء تقسيمات كثيرة لأنواع فقدان الذاكرة، فهذا «ريبو» يُقسّمها قسمين كبيرين؛ أمراض عامة، وأمراض جزئية للذاكرة، أما الأمراض العامة فيُقسّمها بدورها أقساماً؛ مؤقتة، ودورية، ومتقدمة، ووراثية. والأمراض الجزئية هي تلك التي تتناول نواحي

خاصة، مثل نسيان الأسماء أو الأشكال وما إلى ذلك. ونحن ننقل عن كتابه «أمراض الذاكرة» بعض الأمثلة.

وينشأ فقدان الذاكرة المؤقت غالباً فجأة، وينتهي كذلك بطريقة غير منتظرة، وقد يستغرق هذا الفقدان دقائق، وقد يمتد سنوات، فهذا مريض يذهب لاستشارة طبيب ويصاب فجأة بنوبة صرع، حتى إذا أفاق منها، نسي أنه دفع للطبيب أجره قبل دقائق. وذهب مُوظَّفٌ إلى مكتبه وهو يُحسُّ باختلاط في ذهنه، ويتذكَّر أنه كان قد طلب طعاماً من أحد المطاعم، ونسي كل شيء بعد ذلك، فعاد إلى المطعم، وهناك علم أنه طلب الطعام وتناولَه ودفع ثمنه، وأنه خرج متوجّهاً إلى مكتبه، واستمرت هذه الفترة من النسيان ثلاثة أرباع الساعة.

وأصيب شخصٌ بنوبة صرعٍ في دُكَّانٍ وسَقَطَ مغشياً عليه، ثم أفاق ونهض وجرى من الدكان تاركاً قُبْعته وبطاقته، ووجد نفسه على بعد نصف كيلومتر من ذلك المكان، فبحث عن قُبْعته في جميع الدكاكين، ولم يكن يدري ما يفعل، ولم يعد إلى تمام وعيه إلا بعد عشر دقائق.

ويُروى عن أحد العلماء أنه اجتمع في مؤتمرٍ في فندق باريس، فخرج عاري الرأس وذهب إلى شاطئ السين، ثم عاد إلى مكانه من المؤتمر يشترك في مناقشاته دون أن يذكر شيئاً مما فعل.

وتزوَّجت سيدة من رجلٍ تُحِبُّه حبّاً شديداً، ثم أُصِيبَتْ بنوبة إغماءٍ استيقظت بعدها لتنسى كل شيء عن حياتها من بدء زواجها، ولكنها تذكُر ما قبل ذلك، وإذا تقدّم زوجها وابنها دفعَتْهم بعيداً عنها، وجاء أهلها وأخذوا يقنعونها أنها متزوجةٌ وذاتٌ ولد، فكانت تُؤمِّن على كلامهم وتتهم ذاكرتها حتى لا تتهمهم جميعاً بالادّعاء والكذب، ولكنها ترى زوجها وابنها، فتعجب كيف تزوَّجت هذا الرجل وكيف أنجبت هذا الغلام.

وهذه سيدةٌ أخرى في الرابعة والعشرين من عمرها أصيبت بحالة تدفعها إلى النوم، حتى أصبح من العسير تغذيتها فكانوا يضعون ملعقةً في فمها تبلع منها الطعام. وبعد شهرين شُفِيَتْ من ذلك المرض، واستيقظت لتجد نفسها قد نَسِيَتْ كل شيء، وأنها فقدت ذاكرتها، وغاب عنها كلُّ ما تعلَّمَتْه، وأصبح كل شيء تراه جديداً بالنسبة إليها، فهي لا تعرف أحداً حتى أقرباءها الأقربين، ولكنها كانت مرحلةً شديدة الحركة تبدو كأنها طفلة. وفي أول الأمر كان من المستحيل أن يتحادث المرء وإياها، فإذا سمعت سؤالاً ردَّدته في صوتٍ مرتفع، ولم يبقَ في قاموسها إلا بضعة كلمات، ثم أخذت تكتسب بسرعة كلماتٍ

أخرى، ولكنها كانت تخلط بين الألفاظ، بدلاً من أبيض تقول أسود، وإذا وصفت الحارَّ قالت إنه بارد، وهذه ذراعي بدلاً من فخذي، وهذه سنَّتي بدلاً من عيني، وغير ذلك، وظلت على هذه الحال مدةً طويلة. وبقيت فترةً طويلة لا تذكر أهلها، ولو أنها كانت تعرفهم بأسمائهم التي علّمهم إياها. وتعلّمت القراءة من جديد، واضطّرت إلى تعلم الألف باء؛ لأنها لم تذكر حتى الحروف، ثم تعلّمت المقاطع والكلمات وأصبحت تقرأ في سهولة.

وهذا شخص آخر في الثلاثين من عمره، فقد ذاكرته عقب مرضٍ شديد وأصبح لا يعرف حتى أسماء الأشياء المألوفة، فلما استعاد صحته بدأ يتعلم من جديد كأنه طفل، فتعلم أسماء الأشياء، ثم القراءة، ثم أخذ يتعلم اللغة اللاتينية، وكان يتقدم في تعلّمه بسرعة. وكان أخوه هو الذي يقوم بتعليمه، فتوقّف ذات يوم فجأة، ووضع يده على جبهته، وقال: إني أُحسّ في رأسي إحساساً غريباً؛ إذ يُخيّل إليّ الآن أن كل ذلك قد علمته من قبل. واستعاد بعد ذلك ذاكرته.

وإليك قصة سيدة نصف كانت في صحة جيدة، ثم سقطت في حادث في النهر وكادت أن تغرق، وظلّت ست ساعات من دون وعي، ثم عادت إلى نفسها. وبعد عشرة أيام أصيبت بإغماء تام استمر أربع ساعات، فلما فتحت عينيها لم تعد تعرف أحداً، حتى لقد ذهب سمعها وفقدت النطق، والذوق والشم، ولم يبقَ لها من الحواس إلا البصر واللمس الذي كان شديد الحساسية، وأصبحت بذلك جاهلة بكل شيء، عاجزة عن التحرك بنفسها، حتى أضحت كالحيوان الذي انتزع مخه. وكانت ذات شهية جيدة للأكل، إلا أنه كان من الواجب إطعامها، وكانت تبلع الطعام بطريقة آلية. جملة القول ارتدت السيدة إلى آلية خالصة، ولم تكن تعمل شيئاً إلا أن تقطع ما يقع تحت يدها، كالورق، أو الزهر، أو الملابس، قطعاً صغيرة. وبعد فترة من التعليم أصبحت تشتغل بالإبرة من الصباح إلى المساء، ولم تكن تميّز بين الأيام، ولكنها كالأطفال أخذت تكتسب بعض الخبرات، وأخذت تتعلّم نسج السجاد.

وكان هناك موضوعان يؤثّران عليها أشد التأثير، سقوطها في النهر، وقصة غرام قديم، فإذا رأت صورة نهر أو بحر تهيجت هياجاً عظيماً يعقبه صرع وإغماء، وكان صوت الماء يثير فيها خوفاً يجعلها ترتعش، فإذا غسلت يديها وضعتُهما في الماء وضعا دون تحريكهما. ومنذ ابتداء مرضها كانت زيارة رجل معين لها تبعث فيها سروراً ظاهراً، على حين أنها كانت لا تحفل بغيره، وكان يزورها بانتظام كل مساء، كما كانت تنتظر كذلك حضوره. ومع أنها لم تكن تذكر شيئاً مما تفعل، فإنها كانت تترقّب بشغف أن

يُفتح الباب في الساعة المعلومة، وإذا لم يحضر صاحبها ظلت واجمةً طول الليل. جملة القول إن وجود هذا الرجل إلى جانبها كان يزيد في تحسُّن حالتها الطبيعية والنفسية. وأخذت تستعيد ذاكرتها شيئاً فشيئاً، غير أن الطريقة التي شُفيت بها تماماً تُعدُّ عجيبةً حقاً؛ إذ إنها علّمت أن حبيبها يغازل امرأةً أخرى، فثارت فيها عاطفة «الغيرة»، وأحدثت هذه الغيرة ذات يوم حالةً تكاد تشبه حالتها الأولى، حتى إذا أفاقت من إغمائها إذ بها تسترجع ذاكرتها التي فقدتها مدة عامٍ كامل، وعرفت جدّها وجدّتها وأصدقاءها القدامى، ولكنها بعد أن استعادت ذاكرتها الماضية، نسيّت كل شيء عن الفترة التي قضتها خلال المرض حتى ذلك الوقت.

ولا نودُّ أن نُطيل في ذكر القصص التي دوّنها العلماء عن فقدان الذاكرة، وفي كتاب «ريبو» الشيء الكثير، وفيه تتمة الأنواع التي قسّم أمراض الذاكرة إليها. ولكن هذه القسمة أصبحت قديمة، وأصبحت لا تُفسّر ظاهرة النسيان المرضية تفسيراً كافياً. ونحن نميل إلى الأخذ بتقسيم الأستاذ جان ديلاي الذي يجعل الذاكرة ثلاثة أنواع؛ آلية (حسية حركية) واجتماعية، وهمية.

ومعظم هذه القصص التي سقناها عن فقدان الذاكرة، ترجع إلى اختلال الذاكرة الاجتماعية، وتُمثّل ابتعاد المريض عن المجتمع وسخطه عليه وهربه منه، وذلك بنسيان الأحداث التي وقعت له في هذا المجتمع. وليس الصرع، أو الإغماء، أو النوم، وما إلى ذلك، إلا جنوحاً من الشخص إلى الابتعاد عن المجتمع، وهي دليل على أنه لا يريد أن يفتح عينيه عليه. والنسيان أحد هذه الصور المرضية؛ فهو «غيبية» عن المجتمع، وصدوف عنه، وكثيراً ما يختلط النسيان، أو فقدان الذاكرة، بأمراض نفسية أخرى كالصرع أو العته dementia، ولكن هذه الذاكرة الاجتماعية حين تُفقد، فإن الذاكرة الآلية تظل باقية، وكذلك تظل الذاكرة الوهمية، وما يصحبها من هذيان وخرافة وخيالات.

وقد اختلف العلماء بشأن سبب النسيان، ولهم في ذلك نظريات أربع؛ الأولى كيميائية، والثانية عصبية، والثالثة مخية، والرابعة وظيفية. وجميع هذه النظريات من قبيل الفروض التي لم تستطع التجارب تأييدها، ويبدو أن لكلٍّ منها جانباً من الصواب.

ويزعم أصحاب النظرية الكيميائية أن كل عملٍ نفساني يتم على حساب مادةٍ غذائية تنحل كيميائياً وتتغير باستمرار، ويعرف العلماء هذا التغير باسم catalytic، ومن شأنه زيادة التأثير بسبب الفعل. ومثال ذلك الأكسجين الذي نستنشق مع الهواء، فإنه يساعد

على التذكُّر، وقَلَّتْه تؤدي إلى النسيان. وحاول بعضهم تفسير النسيان بتغيُّر كثافة المادة الهلامية colloid.

أما أصحاب النظرية العصبية، فيذهبون إلى أن الذاكرة متصلة اتصالاً وثيقاً بالجهاز العصبي، وما يحدث فيه من تغيير الخلايا العصبية، وأن اكتساب ذكرى جديدة يؤدي إلى زيادة خلوية (أي نسبة إلى الخلية) من جهة الحجم، كما تُعَبَّدُ الطرق بين الخلايا حين يمر التيار العصبي. ونحن نعلم أن الخلية العصبية تتكون من نواة ومن زوائد شُجيرية وزوائد محورية، وتتداخل الخلايا دون أن تتلاحم، بحيث تتداخل الزوائد الشُجيرية من الخلية في فروع الزائدة المحورية من الخلية التي تليها. وتُسمَّى نقطة هذا التداخل بـ «الوصلة»، ويتم العبور بين الخلايا العصبية بانتقال التيار العصبي عابراً هذه الوصل، ويؤدي تكرار انتقال التيار العصبي إلى تكوين العادات أو إلى الذاكرة الآلية، ويؤدي التخدير أو التعب أو السموم، إلى مقاومة هذه الوصل وتباعُد الخلايا العصبية.

وإذا كانت الذاكرة تابعة لقيام الأعصاب بوجه عام بوظيفتها، فإنها أوَّل كل شيء متعلقة بالمخ، والمشاهدة الساذجة تُؤيِّد ذلك؛ لأن ضربة العصا على الرأس تُفْضي إلى الغيبوبة وإلى فقدان الذاكرة، وهناك كما نعرف مناطق للحس والحركة والتفكير والكلام في المخ، فالصلة وثيقة بين المخ وبين الظواهر النفسية المختلفة.

وزعم كثير من علماء النفس حتى أواخر القرن الماضي، أن المخ أشبه بالشمع الذي تنطبع عليه الآثار النفسانية، فهو مثل «الجراموفون»، وأن الذكريات تنطبع أو تُحَفَّر في المخ، ولكن هذه النظرية لا تجد لها سنداً الآن.

وحاول بعض العلماء أن يُعَدَّ الخلايا العصبية الموجودة في المخ، وقدَّرها أحدهم بأربعة عشر مليار من الخلايا، وأن كل صورة ذهنية تُسَجَّل في خلية من هذه الخلايا، فلو فرضنا أن رجلاً عاش حتى الثمانين، فمجموع ما قطعه من الثواني هو ملياران ونصف، ولا يمكن أن تبلُغ ذكرياته هذا العدد؛ لأن قاموس أي شخص من الألفاظ لا يزيد عن ٢٠٠٠٠ لفظة.

غير أن هذه النظرية أيضاً لم تثبَّت طويلاً أمام النقد، وخصوصاً نقد برجسون؛ ذلك أن الصورة الذهنية التي تُؤَلَّف الذكري ليست واحدة، فأنت تعرف «محمدًا» مثلاً بعد أن رأيته آلاف المرات وهو في كل مرة يختلف عن سابقتها، ومع ذلك فهو شخص واحد. وهناك طائفة كثيرة من أنواع النسيان ترجع إلى فساد الحفظ والاكتساب، فالذكريات لا تُنسى لأنها فسدت في المخ، بل لفساد حفظها، ومن أجل ذلك كانت الأحداث سريعة

فقدان الذاكرة

النسيان بالإضافة إلى الشيوخ، على حين أنهم يحتفظون بالأحداث الماضية. يُضاف إلى ذلك أن النسيان يسير طبقاً لقانونٍ معين يُسمَّى قانون التراجع regression؛ إذ تُنسى أولاً الأسماء، ثم المعاني الكلية، ثم الصفات، ثم الأفعال، مما يدل على أن النسيان راجع إلى أسباب نفسانية أكثر منها فسيولوجية.

من أجل ذلك رأى العلماء أن النسيان «وظيفةٌ» حيويةٌ مستقلة للحياة النفسانية، ووظيفة الذاكرة هي وحدة الحياة النفسانية. وإذا انحلت الذاكرة، أدَّت إلى ألوان من النسيان، وإلى أمراض الذاكرة مما بسطناه من قبل.

قواعد لتدريب الذاكرة

يحتاج كل إنسانٍ إلى الاعتماد على ذاكرته، وإلى تحسينها وتقويتها، وإلى إبعاد شبح النسيان. منا من يشكو نسيان الأسماء والوجوه. ويطمع الطالب أن يحفظ دروسه ولا ينساها عند أداء الامتحان. ويرجو الخطيب ألا تخونه ذاكرته وهو يخطب الجماهير فلا يلجأ إلى القراءة من الورق. وأشدُّ الناس حاجةً إلى الذاكرة هم رجال الأعمال، كالتجار والموظفين في المؤسسات التجارية لصلتهم بالجمهور؛ ولأن نسيان الموظف أو رجل الأعمال شيئاً يؤدي إلى خسارة المال. ولذلك أَلَفَ كثيرون كتباً في تحسين الذاكرة لِقِيَت رواجاً كبيراً، ولجأت المؤسسات الأمريكية إلى هؤلاء العلماء النفسانيين في علاج الموظفين عندهم من آفة النسيان.

وإنَّ مُلَخَّصون هذه القواعد التي تقوم على مبادئ نفسانية فيما يلي:

(١) اعقد النية على الحفظ

لنفرض أن أحداً قدَّم إليك شخصاً اسمه «مصطفى عبد العال»، فإنك قد تقول محيياً إياه «تشرَّفنا» أو «أهلاً وسهلاً» دون أن تُعنى بالتقاط اسم مصطفى عبد العال؛ لأنك قد تقول في بالك، ولو بغير شعور، وماذا يهمُّني من تذكُّر اسمه؟ فلا أهمية لي أن أتذكَّر، ولن أقابله مرةً أخرى. فإذا قابلته في مناسبةٍ أخرى، فلن تتذكَّر اسمه؛ لأن نيتك انصرفت من أول الأمر عن تذكُّره. فإذا نسيته فليس معنى ذلك ضعفَ ذاكرتك، بل عدم محاولتك «الحفظ». ولذلك كانت الأمور التي تسمعها أو تقرأها أو تراها عَرَضاً أدعى إلى النسيان.

(٢) انتبه إلى ما تحفظ

إذا عَدَّتْ النية على تذكُّر مصطفى عبد العال، فسوف «تنتبه» إلى اسمه، وتُحَسِّن التقاطه وسماعه، كما تتأمَّل شكله وملامحه وحركاته. وكثيراً ما ينسى التلاميذ ما يُلقِيه عليهم المحاضر أو المدرس؛ لأنَّ عقلهم في شيءٍ آخر، أو بمعنى آخر غير منتبهين، ولذلك لا يفهمون الدرس، مع أنَّ «الفهم» أساس الحفظ، وينسى الطالب؛ لأنَّه لم يفهم المادة التي يسمعها أو يقرؤها. والانتباه هو السبيل إلى الفهم، ثم إلى الحفظ، ثم إلى التذكُّر أو عدم النسيان.

(٣) استعمل الصور الذهنية ما أمكنك

إذا أردت أن تتذكر مصطفى عبد العال، فاستحضر صورته في ذهنك؛ الحَظُّ شكله ولونه، ولون عينيّه وملابسه وهكذا، والحَظُّ كذلك حديثه ولهجته، وانتبه إلى «لوازمه»؛ فكل شخص له لوازمٌ تخصُّه ولا تُوجد عند غيره، وكل شيء كذلك يمتاز بلوازم تخصُّه وتفرِّقه من غيره. والحَظُّ كذلك غرائب الأشياء والأشخاص؛ فكلما كانت الصورة غريبة، بل مضحكة، كانت أدعى إلى التذكر.

(٤) اربط ما تحفظ بغيره من معلوماتك السابقة

هذه القاعدة هي في الواقع أهم قواعد الحفظ؛ لأنَّ الترابط أساس التذكُّر. والترابط قد يكون ظاهرياً وقد يكون جوهرياً، فالترابط الظاهري ما قام على تشابهٍ وثيق أو على مجرد التلازم والتتابع. أما الترابط الجوهري فهو الذي يستند إلى علةٍ معقولة، مثل رابطة السبب بالمُسَبَّب والجزء بالكل، وهكذا.

تريد أن تتذكر مصطفى عبد العال ولا تنساه، فاربطه بصديقك الذي عَرَّفَكَ به، وبالمكان الذي التقيتُم فيه، وبالمناسبة التي وُجِدْتَ، وبعمله ووظيفته، وما إلى ذلك.

والذاكرة الجيدة التي لا تنسى، عبارة عن شبكةٍ منظمة، حسنة الارتباط بين الأجزاء، واضحة الروابط، بحيث يسهل الوصول إلى أي جزءٍ منها. وفي ذلك يقول وليم جيمس:

كلما ارتبطت الحقائق في الذهن بعضها ببعضها الآخر، استطاع العقل أن يُسيطر عليها وأن يذكُرها. وتصبح كل حقيقة من الحقائق التي نربط بها الحقائق الجديدة «الخطأف» الذي تتعلَّق به، أو كالسنارة التي نصيد بها السمك حين يغوص في الماء

ويذهب إلى القاع ويبتعد عن السطح. وتكون هذه الحقائق مجتمعةً شبكة تلتحم في نسيج الفكر. ويرجع السر في الذاكرة الجيدة، إلى تكوين روابط متعددة مختلفة بين الحقائق التي نحتفظ بها. وليست الروابط التي ترتبط بالحقيقة السابقة شيئاً آخر سوى التفكير فيها وتقليدها على وجوهها.

(٥) احفظ بالنغم أو الإيقاع

وهذه هي طريقة تحفيظ الصغار، ولماذا لا يلجأ إليها الكبار؟ وكان القدماء ينظمون العلوم المختلفة في أراجيز منظومة ليسهل حفظها، مثل ألفية ابن مالك في النحو، مما لا يزال يُحفظ في الأزهر حتى الآن.

(٦) وزع ما تحفظ على عدة أيام

من أهم الأسباب التي تجعل كثيراً من الطلبة في مصر يعجزون عن تذكر معلوماتهم عند الامتحان آخر العام، أنهم يظلون طول السنة الدراسية يلعبون منصرفين عن الاستذكار، ثم يكبُون آخر السنة طول الليل يستذكرون، ويكرّرون قراءة العلوم المختلفة. وفي بعض الأحيان لا يقرأ أحدهم العلم إلا ليلة الامتحان، أو صباحه. وقد بينّا أن التكرار الموزع على أيام أفضل من التكرار المتلاحق، وقد ثبت هذا بالتجربة، حتى يأخذ الذهن فرصة للراحة، وحتى ترتبط المعلومات الجديدة بالمعلومات القديمة المستقرة في اللاشعور.

(٧) اجتهد أن «تُسمّع» ما تحفظ

المقصود بالتسميع أن تُكرّر إلقاء ما تحفظ، فتسمع نفسك، أو يسمعك غيرك. وكانت هذه هي الطريقة لتحفيظ القرآن؛ إذ «يُسمّع» الطفل السورة على الشيخ ليعرف هل حفظها أو لا. وفائدة التسميع أنك تُكرّر ما تحفظ فتُضاف إلى المرات السابقة، والتكرار أساس الحفظ، كما يجعلك تثق بنفسك، وتعرف إلى أي حد بلغت.

وإذا أردت أن تذكر اسم «مصطفى عبد العال» فانطق به، واجتهد أن تقول: «أهلاً وسهلاً مصطفى عبد العال.» بدلاً من الاقتصار على رد التحية مجردة، وقل له في آخر المقابلة: «مع السلامة يا مصطفى عبد العال.» فهذا أدعى إلى ذكر اسمه وعدم نسيانه.

(٨) نَمْ أَوْ عَلَى الْأَقْلِ اسْتَرْخُ بَعْدَ الْحِفْظِ

إذا عرف الطلاب هذه القاعدة، تجنبوا السهر ليلة الامتحان في حفظ المادة التي سيُمتَحَنون فيها باكراً، فيأتي أحدهم في الصباح، مجهداً متعباً، فيعجز عن الإجابة، ويعجب كيف نَسِيَ ما حفظ.

(٩) احفظ بالطريقة الكلية مجملاً لا تفصيلاً

إذا كنت تدرُس كتاباً وتحفظ ما جاء فيه، فاقرأ الكتاب كله دفعةً واحدة، واقرأ الفصل جملة لا على عدة أجزاء، إذا كان للكتاب مُلَخَّص، فاقرأ الملخص قبل قراءة الكتاب؛ لأن الطريقة الكلية أدعى إلى الحفظ من الطريقة الجزئية. هذه بعضُ قواعدٍ للحفظ وتقوية الذاكرة، إذا اتَّبَعَهَا الطلاب بوجهٍ خاص، لم يجدوا عسراً في استيعاب ما يدرُسون، ولم يَشْكُوا من آفة النسيان. وكلنا طلاب حقيقة في هذه الحياة. ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾.

